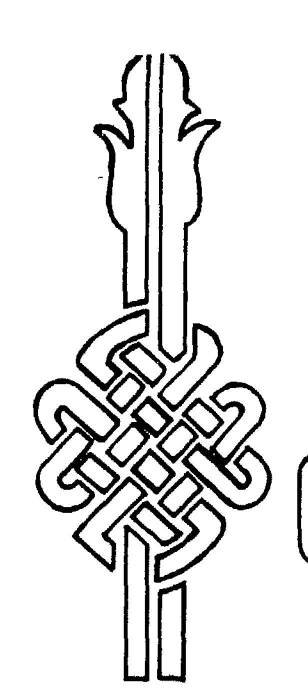


دكتور محمود أحمد حسن المراغي
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

في البلاغة العربية







علم البديع



في البلاغة العربية

علم البديع

دكتور محمود أحمد حسن المراغي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
كلية الآداب - جامعة بيروت العربية



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤١١هـ ١٩٩١م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف: ٣٠٧١٧٣
ص.ب: ١١-٩٥٣٥
بيروت - لبنان

مقدمـــة

بعلم البديع يكتمل مثلث علوم البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، وهي علوم تتحرى مواطن الصحة والحسن في كلام العـرب شعره ونثـره ، من حيث المعاني والألفاظ في علاقاتها ومواقعها من الكلام ، لذا كان لزاماً على دارس اللغة العربية وآدابها أن يصيب قدراً من معرفة هذه العلوم ، يكون له عوناً على أداء ما يرتجى منه في ميدانه الذي اختاره .

إذ تنهض دراسة العربيـة وآدابها على ركـائز أسـاسية ، من أهمهـا حسن التذوق ، والقدرة على البيان والتبين والحكم ، وهما مدار علوم البلاغة عام .

ولما كان علم البديع منوطاً به إظهار ما في كلام العرب من جمال وحسن فإن علماءه الذين تصدوا لتقنينه ابتداء من ابن المعتز وقدامة وأبي هلال ومن تلاهم ، قد استبانوا منه ما ينيف على المائة نوع ، استظهروها من كلام العرب منظومـه ومنثوره ، قديمه وحديثة الذي عاصروه وعالجوه ، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف خير مثل وأسمى مثال لهم في درسهم البديعي . ثم كلام العرب المنظوم والمنثور ، القديم منه والحديث .

ولما كانت أنواع البديع التي قننها علمـاؤه ووضعوا لكـل منها مصـطلحه وشرطه مما يصعب على الطالب أن يلم بها جميعاً ، فقد اقتصرنـا على عرض أهمها في غير إيجاز مخل ، ولا إسهاب ممل ، مقدمين لها بتعريف علم البديع ورواده وأهم علمائه ، مشيرين إلى مواضع بعض أنواعه في كلام العرب القدماء ، والمحدثين بالنسبة لهؤلاء الرواد .

وحتى يتاح للطالب أن يتصل بتراثه ، فقـد ذيَّلنا مـا تم تقديمـه من أنواع

البديع ، ببعض صفحات كتاب عالم من علماء البلاغة ـ وإن لم يكن من روادها الأوائل ـ وهو الخطيب القزويني في كتابه الموسوم بـ (الإيضاح في علوم البلاغة) حتى يتسنى للقارىء أن يتعرف على أسلوب السلف . بالقدر الذي يمهد له السبيل على مصاحبته بعد ذلك . والله أسأل العون وعميم الفائدة .

د . محمود أحمد حسن المراغي

بيروت في ١٥/١٢/١٩٨٨

الفصل الأول

علم البديع وأهم رواده

١ - البديع لغة واصطلاحا

٢ - ظهور علم البديع وأهم رواده





معنى البديع لغةً واصطلاحاً :ـ

مما أورده ابن منظور في لسان العرب حول معنى كلمة بديع : « بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه : أنشأه وبدأه ، وبَدَعَ الرَّكية : استنبطها وأَحْدَثَها ، والبديعُ : المحدثُ العجيبُ ، وأَبْدَعْتُ الشيءَ : اخترعتُه لا على مثال ، والبديعُ من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياءَ وإحداثه إياها ، ويجوز أن يكون بمعنى مُبْدِع ، أو يكون من بَدَعَ الخلقَ أي بدأه ، والله تعالى ـ كما قال ـ بديعُ السمواتِ والأرض ، أي خالقُهما ومُبْدِعُهُما ، فهو سبحانه الخالقُ المخترعُ لا عن مثالٍ سابقٍ ، وسقاءٌ بديعٌ : جديدٌ ، وكذلك زمامٌ بديعٌ ، وحَبْلٌ بديعٌ : جديد » .

فبذلك نرى أن كلمة (بديع) يدور معناها اللغوي حول الجديد والمُحْدَثِ ، والمُخْتَرَعِ .

أما البديع اصطلاحاً ، فإن بينه وبين المعنى اللغوي ، صلة قريبة سوغت التسميةَ ، وأجازت الإطلاق .

فمن تعريفات بعض العلماء نذكر تعريف الخطيب القزويني لمصطلح البديع بقوله[1] : (هو عِلمٌ يُعرف به وجوهُ تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة) .

ويقول ابن خلدون[2] : (هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من

---

(١) الإيضاح ص ٤٧٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦٦ .

التنميق ، إما بسجع يفصّله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخْفَى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد ، وأمثال ذلك) .

وإذا كان ابن خلدون في تعريفه قد أورد بعض أنواع البديع ، فإن حاجي خليفة في تعريفه للبديع يبين قيمته بين علوم البلاغة العربية فيقول[1] : (هو عِلْم يُعْرَفُ به وجوهٌ تفيد الحسن في الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام ، ووضوح الدلالة على المرام ، فإن هذه الوجوه إنما تُعَدُّ محسّنةً بعد تينك الرعايتين ، وإلا لكان كتعليق الدر على أعناق الخنازير ، فمرتبة هذا العلم بعد مرتبة علم المعاني والبيان ، حتى أن بعضهم لم يجعله علماً على حدة ، وجعله ذيلا لهما ، لكن تأخر رتبته لا يمنع كونه عِلْما مستقلاً ، ولو اعتبر ذلك لما كان كثير من العلوم علماً على حدة فتأمل) .

أما الجاحظ فإنه يقصر البديع على العرب ، ويجعله سبب تفوق لغتهم على سائر اللغات[2] : (والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة) .

وقد أطلق عبد العزيز الجرجاني ، ومن بعده ابن رشيق على ألوان البديع اسم الحُلَى ، يقول الجرجاني[3] : (وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً ، لكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حُلَى الشعر) .

أما ابن رشيق فيقول في معرض حديثه للمثل السائر[4] :

(وهذه الأشياء في الشعر ، إنما هي نبذ تستحسن ، ونكت تستظرف مع القلة وفي الندرة ، فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة ، ولا ينبغي للشعر أن يكون أيضاً خالياً مغسولاً من هذه الحلى فارغاً) .

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٤٨ .

(٢) البيان والتبين جـ ٤ ص ٥٥ .

(٣) الوساطة ص ٤٨ .

(٤) العمدة جـ ١ ص ٥٥ .

مما سبق نفهم أن مصطلح (البديع) يدور معناه حول التحسين والتزيين في اللفظ والمعنى ، فحسن اللفظ من حيث الجرس الصوتي وحسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها ، ويزداد حسن أداء الكلام لمعناه بتأثير الرنين الصوتي كما يتضح في الجناس والسجع والترصيع والتصريع ، وغير ذلك من ألوان البديع ، ولتحقيق الجمال والحسن في هذه الأنواع لا بد أن يتحقق الاتصال بالمعنى دائماً ، إذ انقطاع هذا الاتصال يؤدي إلى فساد البديع فيصبح مرذولاً غير مقبول . لذلك كانت وجوه التحسين راجعة إلى تحسين المعنى أصالة مع تحسين اللفظ تبعاً ، أو راجعة إلى تحسين اللفظ ، ومن هنا قسم البلاغيون أنواع البديع إلى قسمين رئيسيين هما : المحسنات المعنوية ، والمحسنات اللفظية :

ظهور علم البديع وأهم رواده :-

من المعروف أن ابن المعتز (٢٩٦ هـ) كان أول واضع لعلم البديع ، وأسبق من ألّف فيه ، وأول من أعطى مؤلّفه اسم (البديع) وحدد معالمه بوضوح وجلاء ، وعبّد نهجه للسالكين فيه من بعده .

غير أن هناك محاولات وإشارات سبقت ابن المعتز ، وإن كانت غير محددة المعالم ، اختلطت فيها بعض ألوان البديع ببعض أنواع غيره من البيان ، فقد وضع مسلم بن الوليد ـ المتوفي سنة ٢٠٨ هـ ـ مصطلحات لبعض الأنواع البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق .

والجاحظ ـ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ ـ

يشير إلى البديع في (البيان والتبيين)[١] محدداً أهم شعرائه فيقول : (والبديع مقصور على العرب[٢] ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل

(١) جـ ١ ص ٥٥

(٢) ويرى بروكلمان وغيره من المستشرقين غير ما قرره الجاحظ ، إذ يقول بروكلمان : (لئن لم يستطع العجم في هذا العصر أن يقدموا نماذج خاصة بهم في شعر الغناء ، فقد تغلغلت أناقة التعبير ورقة الذوق التي اختصوا بها ، في أساليب الشعر البدوي باطراد) انظر (تاريخ الأدب العربي) جـ ٢ ص ٨ .

لسان ، والشاعر (الراعي) كثير البديع في شعره ، و(بشار) حسن البديع ، و(العتابي) يذهب في شعره في البديع مذهب بشار) .

غير أن الجاحظ لم يضع للبديع مصطلحات أو تعريفات علمية ، ولم يدقق في توضيح الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية التي يعنيها لفظ البديع عنده ، ولم يضع لها قواعدها ، بل كان حسبه أن يقدم النماذج والأمثلة لهذه المحسنات .

أما ابن المعتز ـ المتوفي سنة ٢٩٦ هـ ـ

فإنه أول من قام بجهد علمي جاد في تأسيس علم البديع ، ووضع المصطلحات العلمية لفنونه التي اهتدى بها من جاءوا بعده فارتضوها وزادوا عليها ، ورسخت أقدامهم في ميدانها .

وابن المعتز سليل أسرة الخلافة العباسية ، فهو عبد الله بن المعتز ابن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، وكان مولده سنة ٢٤٧ هـ ـ وقد ولي ابن المعتز الخلافة ولم تدم أكثر من يوم وليلة ، ثم مات مقتولاً سنة ٢٩٦ هـ . وابن المعتز إلى جانب كونه عالماً ، كان أديباً أريباً ، وشاعراً مرهف الحس ، سهل اللفظ ، صافي القريحة ، لطيف الصنعة ، مما جعل أسلوبه العلمي في التأليف أبعد ما يكون عن تعقيد العلماء ، وميلهم إلى الاستقصاء والتحليل .

كتاب البديع وموضوعاته :ـ

هو أول كتاب علمي في البديع ، لم يسبقه في ميدانه غيره ، وكان تأليفه سنة ٢٧٤ هـ . يقول ابن المعتز[١] : (ما جمع قبلي فنون البديع أحد ، ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف ، ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره) . ثم يقول : (وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين) .

وقد جمع ابن المعتز في كتاب البديع ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع[٢] ،

---

(١) كتاب البديع ص ٥٨ .

(٢) يذكر الحملاوي أنها سبعة عشر نوعاً ـ زهر الربيع ص ١٥٧ .

قسمها إلى قسمين : أولهما جمع فيه خمسة أنواع سماها باسم البديع ، عالج فيها الأصول الكبرى للبديع كما يراها ، وهذه الخمسة هي : الاستعارة ـ التجنيس ـ المطابقة ـ رد الأعجاز على ما تقدمها ـ والنوع الخامس هو المذهب الكلامي الذي أسند ابن المعتز تسميته إلى الجاحظ قائلاً[1] : (وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً) .

أما القسم الثاني من كتاب البديع فقد أطلق عليه ابن المعتز اسم (محاسن الكلام) وقد نص ابن المعتز على كثرة هذه المحاسن ، وأنه لا ينبغي لأحد ادعاء الإحاطة بها فيقول بعد أن ذكر الخمسة الأصول السابقة[2] : (ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره) .

وقد ذكر ابن المعتز من هذه المحاسن ثلاثة عشر نوعاً في القسم الثاني من كتابه ، وهي :

١ ـ الالتفات : وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك .

٢ ـ الاعتراض : وهو اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد .

٣ ـ الرجوع : وهو أن يقول شيئاً ويرجع عنه .

٤ ـ حسن الخروج من معنى إلى معنى أو الاستطراد كما سماه أبو تمام .

٥ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم .

٦ ـ تجاهل العارف وهو ما أسماه المتأخرون بالإعنات والتشكيك .

٧ ـ هزل يراد به الجد .

٨ ـ حسن التضمين .

٩ ـ التعريض والكناية .

---

(١) كتاب البديع ص٥٣ .

(٢) نفسه ص٥٨ .

١٠ ـ الإفراط في الصفة وهي المبالغة .

١١ ـ حسن التشبيه .

١٢ ـ إعنات الشاعر نفسه في القوافي ، وتكلُّفه من ذلك ما ليس له وهو ما سماه المتأخرون لزوم ما لا يلزم .

١٣ ـ حسن الابتداءات .

وبهذه الأنواع الثلاثة عشر يكون ابن المعتز قد جمع في كتاب البديع ـ بالإضافة إلى الخمسة الكبرى الأولى ـ ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع .

ـ قدامة بن جعفر ـ المتوفي سنة ٣٣٧ هـ ـ

وكان كما يقول الحموى(١) نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله ، وكان متنوع العلوم والمعرفة في اللغة والأدب والفقه والكلام ، وقد درس الفلسفة والمنطق ، وكان لهما تأثير واضح في تفكيره ومنهج كتبه الكثيرة التي يهمنا منها هنا :

كتاب نقد الشعر : ـ

ويختلف كتاب (نقد الشعر) لقدامة عن (كتاب البديع) لابن المعتز في أن الأول في نقد الشعر بعامة ، وجاء البديع فيه قسماً من أقسامه ، عالج فيه المحسنات البديعية في الشعر ، أما كتاب ابن المعتز فهو كله مقصور على البديع . كما أن كتاب البديع ـ كما أسلفنا ـ خلا أسلوبه من تعقيد العلماء واستقصاءاتهم وتحليلاتهم ، وغلب على أسلوبه نزعة مؤلفه الأدبية ، وحسه الشعري الرقيق بألفاظه السهلة ، أما (نقد الشعر) فقد شاعت فيه ثقافة قدامة وعلمه ، فالفلسفة والمنطق ـ على وجه الخصوص ـ لهما أثرهما الواضح في منهج بحثه .

وقد بلغت أنواع المحسنات البديعية في كتاب قدامة أربعة عشر نوعاً ، التقى مع ابن المعتز في خمسة منها هي : المبالغة والالتفات ، وثلاثة أخر لم يختلفا فيها الا في المسمى الاصطلاحي فقط وهي :

---

(١) معجم الادباء حـ ١٧ ص ١٢ .

(الاعتراض) عند ابن المعتز وسماه قدامة (التتميم) ، و(الطباق) وسماه قدامة (التكافؤ) ، و(رد أعجاز الكلام على ما تقدمها) وسماه قدامة (التوشيح) .

أما التسعة الأنواع الأخرى عند قدامة فهي جديدة من اختراعه ، وهي : الترصيع - الغلو - صحة التقسيم - صحة المقابلات - صحة التفسير - الإشارة - الإرداف - التمثيل - الإيغال .

وإذا كان بعض سابقيه قد أشار أو ألمح إلى شيء من هذه الأنواع (كالتمثيل) عند الجاحظ وهو (المثل) عند أبي عبيدة والمبرِّد ، فإن قدامة أول من قننها علماً ، وجعلها مصطلحاً بديعياً .

كما ينسب إلى قدامة أنه أول من نبه إلى تقسيم ألوان البديع إلى معنوي ولفظي . وقدامة ومعاصره ابن المعتز يرجع إليهما الفضل في الاهتداء إلى ما عرف من أنواع البديع السبعة والعشرين .

أبو هلال العسكري - المتوفي سنة ٣٩٥ هـ -

عاصر أبو هلال العسكري قدامة بن جعفر ، ومات بعد قدامة بأكثر من خمسين عاماً ، والعسكري نسبة إلى مدينة (عسكرمكرم) من كور الأهواز بين البصرة وفارس .

ومنهج العسكري يقترب من منهج ابن المعتز من حيث سهولة الأسلوب ، والبعد عن تعقيد وتعميق العلماء وتحليلاتهم ، ذلك لأن ثقافة أبي هلال واهتماماته تتشابه إلى حد بعيد مع ما كان عليه ابن المعتز من ثقافة وأدب . وكتابات أبي هلال تشهد على تفوقه في الأدب وعلوم العربية كاللغة والنحو والصرف والعروض ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب وأنسابهم ، والبلاغة والتفسير والنقد .

كتاب الصناعتين : -

وهو أشهر كتب أبي هلال التي وصلت إلينا ، واسم الكتاب بالكامل هو (كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر) وبهذا الكتاب يكون لأبي هلال فضل السبق

في معالجة صنعة النثر ، إلى جانب صنعة الشعر التي تكاد تكون جهود سابقيه مقصورة عليها في معالجة البديع . ولهذا أطلق على كتابه اسم الصناعتين .

ويتميز كتاب الصناعتين أيضاً بأنه أول كتاب بدت فيه مباحث علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، كما عرفها المتأخرون بوضوح .

كما أن قارىء كتاب الصناعتين (يدرك ـ على حد قول الدكتور أحمد ابراهيم موسى[1] من أول وهلة ، مبلغ مباينة أبي هلال من سبقوه بالتأليف في علم البديع مستقلاً أو تابعاً للنقد ، حيث عقد باباً من الأبواب العشرة خاصاً بالبديع سرد فيه ستة وثلاثين نوعاً ، لم يكن من بينها التشبيه ، وقد عده معها ابن المعتز وقدامة ، كما لم يكن بينها مقاطع الكلام ومباديه ، وقد بحث المبادى ابن المعتز ضمن ألوان البديع ، وكذلك لم يكن بينها السجع والازدواج ، وقد عرض قدامة للسجع في أثناء حديثه عن الترصيع ، ذلك هو الجديد في صنيع أبي هلال بالبديع على جهة العلوم) .

وإذا كان أبو هلال أول من كشف عن صورة المثلث البلاغي كاملة بحديثه عن المعاني والبيان إلى جانب البديع الذي سبقه بالحديث عنه ابن المعتز وقدامة ، فإن حدود المثلث البلاغي لم تتكافأ تماماً مع تعريفات المتأخرين لعلوم البلاغة الثلاثة ، وذلك بأنه اعتبر الاستعارة والكناية والاعتراض والتذييل من أنواع البديع ، مع أن الاستعارة والكناية من أبواب علم البيان ، والاعتراض والتذييل ـ وهما من أساليب الإطناب ـ نوع من أنواع علم المعاني .

وأنوات البديع التي أوردها أبو هلال في كتاب الصناعتين ، وعددها ستة وثلاثون نوعاً ، اهتدى هو نفسه غير مسبوق إلى ستة أنواع منها ، يقول[2] : (وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع : التشطير والمحاورة والتطريز والمضاعف والاستشهاد والتلطف) ثم أشار إلى أنه اهتدى إلى نوع سابع من أنواع

---

(١) الصبغ البديعي ص ١٦٠ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٦٧ .

البديع أطلق عليه اسم المشتق[1] . كما قام بتشذيب وتهذيب ما اهتدى إليه من سبقه في ألوان البديع .

ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ ـ ٤٥٦ أو ٤٦٤ هـ)

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تعلم وهو صغير حرفة الصياغة ، وكانت صنعة أبيه المملوك الرومي ، وحصل قدراً من الأدب والشعر ، ثم ارتحل من بلده المحمدية إلى القيروان ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، استزادة في العلم ، ومجالسة العلماء والأدباء ، حتى صار من بلغاء القيروان المعدودين ، وشعرائها المجيدين ، وعلمائها المدققين ، أفاد من شيوخه ومن سلفه ، وأثر في تلاميذه ومَن خَلَفه ، وقد تحقق ذلك في أشهر كتبه :

كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ـ

وقد حرص ابن رشيق على أن يكون عنوان كتابه مرآة صادقة لما حواه ، إذ جمع فيه محاسن ما قاله سابقوه في الشعر ونقده وتصنيفه ، وأشار إلى ما للشعر من المكانة وعظم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأنفة ، وسلطان القدرة ، وأردف ذلك بما يكشف عن منهج كتابه في دراسة الشعر قائلاً[2] :

(ووجدت الناس مختلفين فيه ، مختلفين عن كثير منه ، يقدمون ويؤخرون ، ويقللون ويكثرون ، قد بوّبوه أبوباً مبهمة ، ولقبوه ألقاباً متّهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة ، وانتحل مذهباً هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتاب ، ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه إن شاء الله تعالى) ثم يقول : (وعولت في أكثره على قريحة نفسي ، ونتيجة خاطري ، خوف التكرار ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطَتْه الرواية ، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ، ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف ، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك ، إلا أن يكون متداولاً بين العلماء ، لا يختص به واحد منهم دون

---

(١) السابق ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٤ .

الآخر ، وربما نحلته أحد العرب ، وبعض أهل الأدب ، تسترا بينهم ووقوعاً دونهم ، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل فرع إلى أصله ، وبينت للناشيء المبتديء وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لبس الارتياب ، حتى أعرف باطاله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه) .

وقد أثارت جودة كتاب العمدة وعظمته حفيظة بعض النافثين على ابن رشيق ، فأنشأ بعضهم كتباً ورسائل ينقدونه فيها ، وينبهون على أغلاطه ، من تلك رسائل أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد القيرواني ، وكان شاعراً أديباً معاصراً لابن رشيق ، ومنهم الأعلم الشنتمري الذي ذكر المقَّرى أن له كتاباً في مختصر كتاب العمدة والتنبيه على أغلاطه[1] .

وقد وصف ابن رشيق هؤلاء النافثين عليه بأنهم (من الحفاث قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين) .

ويتكون كتاب العمدة من جزءين يشملان قرابة مائة باب ، جمع فيها ابن رشيق محاسن ما ارتضاه مما تناوله سابقوه ، في صناعة الشعر ، أضفى عليها ـ في تصنيفها وتبويبها ـ ما ينم عن علمه وثقافته ووعيه .

وعقد ابن رشيق في كتابه قسماً خاصاً بالبديع صار عمدة لمن جاء بعده في هذا الميدان ، حيث أجاد تصنيفه ، وتهذيب ما تناوله سابقوه ، وانفرد ببعض أنواع البديع التي لم يسبقه إليها أحد وهي : التورية ، والترديد ، والتفريع ، والاستدعاء ، والتكرار ، ونفى الشيء بإيجابه ، والاطراد ، والاشتراك ، والتغاير .

ـ ابن سنان الخفاجي ـ المتوفي سنة ٤٦٦ هـ ـ

هو الأمير أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، عاصر ابن رشيق ، ولكن الشواهد تدل على عدم التقائهما ، إذ لم يتحدث أحد منهما عن الآخر في كتابه ،

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٣٥ .

وابن رشيق مغربي قيرواني ، وابن سنان مشرقي حلبي ،

ومن أهم مراجع ابن سنان التي أشار إليها واستعان بها من كتب السابقين : كتاب نقد الشعر لقدامة ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، والجامع في علم القرآن للرماني ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ومن أبـرز شيوخـه أبو العـلاء المعري .

وبالرغم من إشارة ابن سنان إلى كتب سابقيه ، واستعانته بهـا ، فإنـه لم يقلدها في منهاجها ، بل كان له منهجه الخاص ، واستقلاله في الرأي ، وبعده عن التقليد والتبعية ، لذلك كان في كثير من المسائل غير مسبوق ، يقول[1] :

(شرحت من حال اللفظ بانفرادها ، وما يحسن فيها ويقبح ، ما اعتمدت في تلخيصه وإيضاحه على أنني لم أرجع فيه إلى كتاب مؤلف ، ولا قول يروى ، ولا وجدت ما ذكرته مجموعاً في مكان ، وإنما عرفته بـالدربـة ، وتأمـل أشعار الناس ، وما نبه أهل العلم في إثباتها) .

أما دراسته للبديع فقد تأثر فيها إلى حد بعيد بمنهج قدامة وطريقته في (نقد الشعر) وتابعه في كثير من تعاريفه ومصطلحاته . وكتاب ابن سنان الذي يهمنا في هذا الصدد هو كتاب :

سر الفصاحة : (٤٥٤ هـ)

وقد عالج فيه فصاحة اللفظ منفرداً ، وفصاحته مع غيره من الألفاظ ، وجعل لذلك شروطاً فقال[2] :

(وتلك الشروط تنقسم قسمين : فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض) .

وأما أنواع البديع في كتاب (سر الفصاحة) فهي الأنواع نفسها التي طرحها

---

(١) سر الفصاحة ص ٨٥ .

(٢) السابق ص ٦٠ .

سابقوه في كتبهم ، غير أن ابن سنان كان الرائد الثاني في شيئين : أولهما أنه كان التالي مباشرة لأبي هلال في عرضه لحسن التعليل ، وكان ثالثهما عبد القاهر الجرجاني الذي أطلق على حسن التعليل اسم (التخييل) وقسمه إلى أنواعه المعروفة التي نقلها عنه صاحب التلخيص[1] .

ـ عبد القاهر الجرجاني : ـ المتوفي سنة ٤٧١ هـ ـ

عالم متميز فذ ، ناقد لا يشق له غبار ، نحوى نابه ، بلاغي متفرد ، متكلم أشعري المذهب .

راعه ما انتهى إليه أمر المشتغلين بصناعة الكلام في عصره من الكتاب والشعراء والنقاد ، وقد سيطر عليهم سحر الألفاظ وبهرجها فأسقطوا المعاني من حسابهم أو كادوا ، فانبرى يقيم موازين الكلام كما ينبغي ، فأعاد للمعاني مكانتها الضائعة ، وجعل لها الصدارة على الألفاظ ، إذ الألفاظ وحدها لا تفيد إلا إذا انتظمت في تركيب بعينه .

ونظرية النظم التي اهتدى إليها في دلائل الإعجاز تقوم على ألا مزية ذاتية للألفاظ في الكلام من حيث هي ألفاظ ، وإنما المزية تأتي دائماً من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها . يقول في مقدمة الأسرار مشيراً إلى أن أشرف أنواع الكلام ما كان فيه أجلى وأظهر ، وأن ذلك لا يتأتى باللفظ وحده[2] : (ومن هنا يبين للمحصل ويتقرر في نفس المتأمل، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البيّن الجليّ أن التباين في هذه الفضيلة ، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ ، كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب) .

ومما سبق فيه عبد القاهر عصره ، أنه نبه في أسرار البلاغة إلى ضرورة عدم

---

(١) الصبغ البديعي ص ٢١٧ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٣ .

اغفال الجانب النفسي عند التعرض لعنصر الجمال في الصور الفنية، إذ أن فكرة النظم وحدها غير كافية للكشف عن هذا العنصر الجمالي[1] ويرى ذلك متمثلاً في التجنيس والحشو من أغراض البديع فيقول[2] :

(وها هنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس ، ولها إذا حق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو) .

ولعبد القاهر الجرجاني مصنفات كثيرة في النحو ، والعروض ، والتفسير ، واعجاز القرآن ، والنقد والبلاغة ، غير أن الذي شاع وذاع منها ، كتاباه العظيمان :

أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز :

ولم يكن كلا الكتابين أو أحدهما خاصاً بعلم البديع ، ولا أفرد عبد القاهر في أحدهما باباً للبديع ، بل جاء (أسرار البلاغة) في علم البيان و(دلائل الإعجاز) في علم المعاني .

ولم يكن إغفال عبد القاهر معالجة علم البديع عجزاً منه أو تقصيراً ، بل تناول منه ما يخدم البيان والمعاني ، ويعضد فكرة النظم عنده ، فاقتصر على الجناس والسجع وحسن التعليل ، مشيراً أحياناً إلى الطباق والمبالغة ، مستظهراً بذلك تفوق أهمية المعاني على الألفاظ ، فهو يقول في مقدمة الأسرار ـ وقد عَدَّ الاستعارة من البديع كما فعل بعض سابقيه[3] ـ (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني ، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب) .

وإذا كان ابن المعتز يعتبر من علامات القرن الثالث مؤسساً لعلم البديع ،

---

(١) أنظر في ذلك : من الوجهة النفسية . . . للأستاذ محمد خلف الله أحمد ص٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٤ .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٤ ـ ١٥ .

فإن عبد القاهر من أبرز علامات القرن الخامس مؤسسا لعلم المعاني ، وعلم البيان ، مُعبِّدا مسلكهما لمن جاء بعده .

ـ الزمخشري ـ المتوفي سنة ٥٣٨ هـ ـ

يعتبر من أهم من اقتفى أثر عبد القاهر . فهو العالم النحوي اللغوي المفسر الأديب ، له مؤلفات قيمة في كل هذه المناحى ، وأهم كتبه وأشهرها كتاب (الكشاف) الذي أكمل فيه بناء ما أسسه بعد القاهر في علم المعاني وعلم البيان ، بأن تناول من آيات القرآن الكريم في تفسيره واتخذها خير شاهد وأعظم مثال في توضيح ما أرساه عبد القاهر من قواعد بلاغية . مما جعل ـ كتاب الكشاف يستحوذ على إعجاب علماء عصره ، ومنهم أهل السنة ، مع أن الزمخشري معتزلي .

وكما كان موقف عبد القاهر من البديع في كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، كان كذلك موقف الزمخشري في الكشاف ، إذ إنه لم يتوقف عند شيء من البديع إلا ما كان يراه ذا أثر في بلاغة القرآن الكريم ، فنجده يطرق على استحياء بعض أنواع البديع ، كالطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتقسيم والاستطراد ، ومراعاة النظير والتناسب والتجريد .

ولكن القرن السادس لا يكاد ينقضي حتى يبرز فيه رجلان من رجال علم البديع هما :

ـ الوطواط رشيد الدين العمري ـ المتوفي سنة ٥٧٣ هـ ـ

وله كتاب (حدائق السحر في حقائق الشعر) والكتاب في البلاغة الفارسية ـ ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم الشواربي ـ جعله صاحبه تطبيقاً جيداً لفنون البديع العربي على نصوص الأدب الفارسي .

وأسامة بن منقذ ـ المتوفي سنة ٥٨٤ هـ ـ

هو الرجل الثاني بعد الوطواط من علماء البديع في القرن السادس

الهجري . وأهله بنو منقذ كانوا أمراء (شيرز) بالقرب من حماه ، وينتهي نسبهم إلى حمير .

وكان ابن منقذ شاعراً أديباً له مصنفات عدة في فنون الأدب ، أهمها (كتاب البديع في نقد الشعر) اجتمع له فيه خمسة وتسعون باباً في البديع : جمع فيها كثيراً مما جاء في كتب سابقيه في نقد الشعر وبيان ما استحسن منه وما استهجن ، وقد بدأت أبوابه بالتجنيس وانتهت بالتهذيب[1] .

أما القرن السابع فكان أغنى من سابقيه علماء بلاغة ، سبعة منهم حظى البديع على أيديهم باهتمام خاص ، وهم فخر الدين الرازي ، والسكاكي ، وضياء الدين بن الأثير ، والتيفاشي المغربي ، وابن أبي الإصبع ، وعلي بن سليمان الإربلي ، وبدر الدين بن مالك .

فأما فخر الدين الرازي ـ المتوفي سنة ٦٠٦ هـ ـ

فقد تنوعت ثقافته ، وبالتالي تنوعت كتاباته ما بين التفسير ، والفقه ، وعلم الكلام ، والطب ، والكيمياء ، مما صبغ تفكيره بالدقة والإحكام والمنطق القوي .

وأشهر كتب الرازي (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) أجمل فيه ما بسطه عبد القاهر في كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فقام بعملية تنظيم وتبويب وترتيب واختصار وضبط لكل ما أورده عبد القاهر في الكتابين .

ولم يغفل الرازي (البديع) في كتابه ، فتناول منه أنواعاً عدة ، نقلها عن كتاب الوطواط (حدائق السحر في حقائق الشعر) . من هذه الأنواع : تجنيس الخط ،والمصحّف، والتجنيس ، والاشتقاق ، ورد العجز على الصدر ، والمقلوب . . . وغير ذلك من ألوان البديع التي لخصها ونثرها في ثنايا كتابه بطريقة نتج عنها نوع من الخلط بين عِلم البديع وعِلْمَي المعاني والبيان .

---

(١) أنظر في ذلك تاريخ الأدب لجورجي زيدان جـ ٣ ص ٦١ .

ثم يأتي السكاكي - المتوفي حوالي ٦٢٦ هـ -

وقد أتقن علوم المنطق والفلسفة ، والفقه وأصوله ، واللغة والبلاغة ، وينعكس أثر هذه الثقافات والمعارف على تأليف وتبويب أشهر كتبه (مفتاح العلوم) فيفرد القسم الأول منه لعلم الصرف وما يدور حوله من أنواع الاشتقاق ، ويخصص القسم الثاني لعلم النحو ، أما القسم الثالث من الكتاب فيجعله لعلوم البلاغة : المعاني والبيان وما يلحق بهما من مباحث البلاغة والفصاحة ، والمحسنات البديعية بقسميها اللفظي والمعنوي .

ولعل تقسيم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية تقسيماً صحيحاً كان على يدي السكاكي إذ يقول[1] بعد تعريف البلاغة والفصاحة :

(وإذ نقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ) .

ثم سرد من القسم الأول الراجع إلى المعنى عشرين نوعاً ، أتبعها بخمسة أنواع من القسم الثاني الراجع إلى اللفظ .

وكان من حاول هذا التقسيم قبل السكاكي يخلط بين اللفظي والمعنوي في غالب الأحيان .

كما يحسب للسكاكي أنه أول من فرق بين مباحث عِلْمَي المعاني والبيان ، وأطلق على كل منهما مصطلحه (علم المعاني) و(علم البيان) ، وهو كذلك أول من أشار إلى أن منزلة علم البيان من علم المعاني منزلة المركب من المفرد ، وبذلك ينبغي أن يأتي علم البيان في مرحلة تالية بعد علم المعاني[2] .

ولم يشر السكاكي إلى البديع على أنه علم كالمعاني والبيان ، إذ جعل

---

(١) المفتاح ص ١٧٥ .

(٢) المفتاح ص ٧٠ .

المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية في تعريفه للبلاغة متضافرة مع مسائل عِلْمَي المعاني والبيان في الوصول بالكلام إلى أعلى الدرجات من التحسين والتزيين .

ولم يأت السكاكي بجديد في أنواع البديع ، بل هو يستقصي كل ما اهتدى إليه سابقوه في علم البديع ، ويقتصر على ستة وعشرين منها استمدها بأمثلتها من فخر الدين الرازي .

ولقد أفاد السكاكي من كتب السابقين جميعاً ، وعلى وجه الخصوص كتب عبد القاهر الجرجاني ، وبالتالي كان كتابه (مفتاح العلوم) شغل من أتوا بعده جميعاً ما بين ملخص وشارح وناظم ومقرر . فحظى المفتاح من اهتمام الباحثين بما لم يحظ به كتاب قبله ولا بعده . وكان للقسم الثالث من المفتاح ـ وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ـ الحظ الأوفر من الشهرة والذيوع بين جمهور الناس حتى يومنا ، رغم تمام سابقيه في بابهما ، وذلك لأن السكاكي في القسم الثالث من كتابه نهج بالبلاغة نهجاً لم يتبعه سابقوه ، إذ فتح على علوم البلاغة باب العلوم العقلية على مصراعيه في المنطق والفلسفة ، وبلغ في ذلك شأواً عظيماً فاق فيه قدامة إلى حد بعيد ، مما جعل بعض الباحثين يرى أن السكاكي كان زعيم حلبة ، وممهداً لطريقة أوردت البديع مع زميليه : المعاني والبيان ، موارد الإسفاف والانحطاط حين بدأ البديع يفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الاشراق والاعجاب ليتعثر في قبور ضيقة في هالة المنطق والفلسفة ، فتشابهت كتب العلماء بعده فيما توارثوه من أمثلة تقليدية ، حتى أصبح من وقف على كتاب منها استغنى به عما سواه .

ابن الأثير ـ المتوفي سنة ٦٣٧ هـ ـ

هو ضياء الدين بن الأثير ، ولد سنة ٥٨٨ هـ في جزيرة تدعى (جزيرة ابن عمر) على مسيرة ثلاثة أيام من الموصل[١] . وهو العالم اللغوي البلاغي الأديب الوزير . وضياء الدين ثالث أخوين ، وأصغر الثلاثة سناً ، وكل واحد من الثلاثة عالم في فرعه ، فالأكبر هو مجد الدين بن الأثير ـ المتوفي سنة ٦٠٦ هـ من

(١) معجم البلدان جـ٣ ص ١٠٢ .

رجالات الحديث ، وله كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) . والثاني هو عز الدين بن الأثير - المتوفي سنة ٦٣٠ هـ - وهو العالم المؤرخ صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) .

أما ضياء الدين بن الأثير فإن الذي يهمنا من مؤلفاته - على تنوعها وكثرتها - هو كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) . وفيه يتخفف البديع إلى حد ما من قيود الفلسفة والمنطق ، ليعود إلى ثوبه الأدبي القديم ، وإن كان ابن الأثير لم يستطع الخلاص من سمات عصره الأسلوبية كالميل إلى الضبط والحصر والجدولة المنطقية والفلسفية ، ولم يسلم كتاب (المثل السائر) أيضاً من سمة عصره في الكتابة ، وهي الصناعة اللفظية التي عابها ابن الأثير على كُتَّاب عصره .

وبالرغم من كل ذلك فإن كتاب (المثل السائر) سجل واف لكل ما يتصل بفن الكتابة والشعر ، حاز الإعجاب ، وأشاد به كثير من علماء البيان ، فأنزلوه في النظم والنثر وصناعة الكتابة منزلة الفقه لاستنباط أدلة الأحكام .

وقد أخذ بعض العلماء على ابن الأثير في (المثل السائر) أنه شديد الزهو بنفسه ، كثير الإشادة بسبقه ، مُدِلٌ بما وصل إليه دون غيره ، فأقواله متبوعة غير تابعة . . إلى آخر ما ملأ به كتابه من عبارات الزهو والإعجاب بنفسه ، وما عده بعض العلماء غروراً لا ينبغي ، وتجريحاً لغيره غير جائز ، مما جعل ابن أبي الحديد صاحب (نهج البلاغة - المتوفي سنة ٦٥٥ هـ - يتصدى له بكتاب صغير سماه (الفلك الدائر على المثل السائر) يرد فيه على ضياء الدين معنفاً مصححاً لما غالط فيه من آراء ، ناقضاً نقده وتجريحه للزمخشري والغزالي وأبى على الفارسي وابن سينا والفارابي وغيرهم . ثم جاء صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - المتوفي سنة ٦٧٤ هـ - مناصراً إبنَ أبي الحديد في ثورته على ضياء الدين فألف كتاباً سماه (نصرة الثائر على المثل السائر) .

ولقد انتفع ابن الأثير بكتب من سبقوه كابن المعتز وقدامة وأبي هلال وابن جنى والبغداديَّيْن ابنِ أفلح وابنِ حمدون ، واقتبس كثيراً من عبد القاهر وادعاه لنفسه . ولكن ذلك كما قلنا لم يقلل من قيمة كتابه (المثل السائر) .

موقف (المثل السائر) من البديع : -

يجاري ابن الأثير بعض سلفه كعبد القاهر والزمخشري والسكاكي في عدم اعتبار البديع علماً قائماً بذاته ، ويهتم بالبيان متضمناً المعاني والبديع ، وهو بذلك يسير على مدرسة الجاحظ في اعتبار كلمة (بيان) مرادفة لكلمة (بلاغة) . ولم يتعرض لكلمة (البديع) في كتابه إلا في موطن واحد حيث أطلق على (المطابقة) اسم (البديع) .

ويتكون (المثل السائر) من مقدمة ومقالتين ، في المقدمة تسجيل لأصول علم البيان . أما المقالتان فتشملان فروع علم البيان . المقالة الأولى خاصة بالصناعة اللفظية ويتناول فيها ابن الأثير المحسنات البديعية اللفظية ، والمقالة الثانية خاصة بالصناعة المعنوية ويتناول فيها المحسنات البديعية المعنوية .

وفي القسم الثاني من المقالة الأولى يعالج البديع اللفظي فيختار منه ثمانية أنواع هي : -

١ - السجع ويختص عنده بالكلام المنثور .
٢ - التصريع ويختص عنده بالكلام المنظوم .

أما ستة الأنواع الباقية فتختص بالمنثور والمنظوم معاً وهي :

٣ - التجنيس .
٤ - التصريع .
٥ - لزوم ما لا يلزم .
٦ - الموازنة .
٧ - اختلاف صيغ الكلام .
٨ - تكرير الحروف .

أما المقالة الثانية الخاصة بالمحسنات البديعية المعنوية ، فقد تناول فيها الكلام في المعاني بإسهاب وتفصيل ، فأورد منها ثلاثين نوعاً ، نذكر منها الاستعارة ، والتشبيه ، والتجريد ، والالتفات ، والتفسير بعد الإبهام ، والاستدراج ، والإطناب ، والإيجاز ، والتكرير ، والتعريض ، والأحاجي

والألغاز ، والتناسب بين المعاني ويقسمه ثلاثة أقسام : الطباق وصحة التقسيم . وترتيب التفسير الذي أراد به ما يشبه اللف والنشر . كما أنه توسع في معنى المطابقة فجعلها تشمل المقابلة ، والمشاكلة ، والمؤاخاة بين المعاني .

وينهى ابن الأثير كتابه ببحث عن السرقات الشعرية ، مشيراً إلى أنه وضع فيها كتاباً منفرداً .

وقد هاجم ابن الأثير من أولعوا بالمحسنات البديعية التي تخرج في بعض صورها عن موضوع علم البيان ، كالذي أورده الحريري من رسائل في بعض مقاماته ، فمن هذه الرسائل ما بنى على الطرد والرد في قراءة عباراتها ، ومنها ما صيغ بطريقة تقرأ بها من أولها بوجه ، ومن آخرها بوجه آخر ، ومنها ما صيغ على أساس حرف غير منقوط وآخر منقوط ، أو على أساس كلمة مهملة وكلمة معجمة .

فكل ذلك من الحيل البديعية رفضه ابن الأثير ونبذه من البيان ، وحكم عليه بأنه (ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة ، والمعالجة ، والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة)[1] .

ـ شرف الدين التيفاشي المغربي ـ المتوفي سنة ٦٥١ هـ ـ

من بديعيي القرن السابع الهجري ، وقد أحصى من ألوان البديع سبعين نوعاً ضمنها كتابه الموسوم بـ (علم البديع) . وقد أشار ابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) إلى كتاب التيفاشي في علم البديع وأشاد بصاحبه قائلاً[2] .

(وهو آخر من ألف منه تأليفاً قبلي فيما بلغني ، وجمع فيه ما لم يجمعه غيره ، لولا مواضع نقلها ولم ينعم النظر فيها ، وبعض أبواب تداخلت عليه كغيره ، ولو أنعم النظر في ذلك لم يفته ما استدركته عليه ، فإن الرجل أمثل من لقيته من أهل هذه الصناعة في وقتي هذا) .

---

(١) المثل السائر ص ٣٠٠ .

(٢) تحرير التحبير ص ٤ .

ـ ابن أبي الإصبع ـ المتوفي سنة ٦٥٤ هـ ـ

وهو الأديب الشاعر المصري الشهير أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد ابن ظافر ابن عبد الله الذي عرف بابن أبي الإصبع .

له كتاب (الأمثال) صدَّره بأمثال القرآن الكريم ، ثم جمع فيه ما وقف عليه من أمثال الشعراء ومصنفات الدواوين الشعرية .

وله كتاب (بديع القرآن) أو (بدائع القرآن) على حد ما ذكره صاحب (معاهد التنصيص) وأما كتابه الشهير (البديع في صناعة الشعر) أو (تحرير التحبير) فهو كله في البديع ، وبهذا الكتاب انطلق علم البديع من عقال القرن السابع ليزدهر من جديد ، ويتقدم خطوات واسعة ، إذ عرض فيه ابن أبي الإصبع مائة وعشرين نوعاً من أنواع البديع ، منها ثلاثون سَلِمَتْ له ، والباقي من كتب السابقين ، يقول حاجي خليفة[١] : (. . . ثم تصدى لها ـ أي للمحسنات البديعية ـ زكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع المتوفي سنة ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين ، سَلِمَ له منها عشرون ، وسماه (التحرير) ، وهذا أصح كتاب صنف فيه ، لأنه لم يتكل على النقل دون النقد) .

وبهذا يصرح ابن أبي الإصبع نفسه في كتابه فيقول[٢] :

(وقد عنَّ لي استنباط أبواب تزيد بها الفوائد ، ويكثر بها الإمتاع . . . ففتح لي من ذلك بثلاثين باباً سليمة من التداخل والتوارد[٣] ، ولم أُسبَق في غلبة ظني إلى شيء منها) .

ويخبرنا ابن أبي الإصبع أن مراجعه في تأليف كتابه بلغت (أربعة وثلاثين كتابا ، منها ما هو منفرد به ـ أي البديع ـ وما هذا العلم أو بعضه داخل في ضمنه)[٤] .

---

(١) كشف الظنون جـ١ ص ١٩٠ .
(٢) تحرير التحبير ص ٨ .
(٣) وهذا القول مردود عليه فيما يلي .
(٤) تحرير التحبير ص ٤ .

ويحترز ابن أبي الإصبع مما وقع فيه ابن الأثير من غرور وزهو وتجريح للعلماء ، فيقول[1] : (. . . وما أبرىء نفسي ، ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي) .

أما منهج ابن أبي الإصبع في تأليف كتابه فهو كما يقول[2] .

(توخيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي ، ودققت النظر حسب طاقتي ، فنقحت ما قدرت على تنقيحه ، وصححت ما قويت على تصحيحه ، وغيرت ما وجب تغييره ، ووضعت كل شاهد في موضعه ، وربما أثبتُّ اسم الباب دون مسماه إذا رأيت اسمه لا يدل على معناه ، إلى أن جمعت ما في كتب الناس من الأبواب على ما قدمت مني) .

ومما أُخذ على ابن أبي الإصبع أنه أدخل بعض أنواع علم المعاني في علم البديع ، ومنها صور الإطناب كالتكرار والتفصيل والتذييل والاستقصاء والإيضاح والبسط والإيجاز .

كما أن بعض المحسنات البديعية الثلاثين التي قال إنها من اختراعه ، غير مسبوق إليها ، سليمة من التداخل والتوارد ، نجد ، أكثر من نوع منها إما مسبوق إليه ، وإما فيه تداخل مع غيره من الأنواع المعروفة قبله ، فمثلاً (الإلغاز والتعمية) سبقه إليه ابن الأثير ، و(الإبهام) سبقه إليه السكاكي وكذلك (التصرف) وهو من علم البيان وسبقه السكاكي إليه وحدده بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، و(السلب والإيجاب) سبقه إليه أبو هلال العسكري ، و(حسن الخاتمة) سبقة إليه القاضي الجرجاني في (الوساطة) وابن رشيق في (العمدة) وسماه التيفاشي (حسن المقطع)، وأما (الحيدة والانتقال) فقد سبقه إليه قدامى المفسرين في تفسير الآية الكريمة (ألم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه . . . الآية) ، و(الإيضاح) عنده هو ما عرف

(١) السابق ص ٥ .
(٢) السابق ص ٥ .

في البديع باسم (التفسير) ، و(التشكيك) هو (تجاهل العارف) عند ابن المعتز .

ويعتبر ابن أبي الإصبع ثالث ثلاثة يمثلون فترة انتقال علوم البلاغة من مرحلة إشراق الصور الأدبية في درس البديع إلى مرحلة القيود الفلسفية والجداول المنطقية ، واللف والدوران حول ما تم تأليفه شرحاً واختصاراً وتلخيصاً وتقليداً وتقريراً ونظماً ، وكأن ليس بالإمكان أبدع مما كان ، وظلت الحال على ما هي عليه منذ أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري حتى العصر الحديث .

وفي أواخر القرن السابع الهجري نجد معاصراً لابن أبي الإصبع وهو : ـ علي بن عثمان الإربلي ـ المتوفي سنة ٦٧٠ هـ ـ وبه تبدأ مرحلة جديدة في دراسة البديع ، هي مرحلة النظم ، نظم البديع في قصائد ومدائح نبوية عرفت فيما بعد باسم (البديعيات) والقصيدة التي نظمها الإربلي تتكون من ستة وثلاثين بيتاً ، يشتمل كل بيت منها على نوع من أنواع البديع ، ووضع إزاء كل بيت اسم المحسن البديعي الذي يحتويه البيت مثل :

بعض هذا الدلال والإدلال .. حال بالهجر والتجنب حالي (الجناس اللفظي) .

طلبٌ دونه منالُ الثُّريا .. وهو دونه زوالُ الجبال (الغلو) .

وهكذا تسير المنظومة البديعية إلى آخرها .

وأما ابن مالك ـ المتوفي سنة ٦٨٦ هـ ـ

فهو بدر الدين محمد بن جلال الدين ابن مالك الطائي ، وأبوه جمال الدين بن مالك العالم النحوي ناظم الألفية المشهورة في النحو ، وبدر الدين عالم نحوي وبلاغي ، وهو من مدرسة التلخيص ، إذ لخص كتاب السكاكي (مفتاح العلوم) وسماه (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع) ، وبهذا العنوان ومحتواه يكون السبق لبدر الدين بن مالك في جعل المحسنات البديعية علماً مستقلاً يقف إلى جانب علم المعاني وعلم البيان ، وبذلك أتاح للدرس البلاغي أن يتضمن علوماً ثلاثة هي : المعاني والبيان والبديع ، وعلى نهجه سار لاحقوه في هذا الميدان ، يضاف إلى ذلك أنه جرد كتابه مما علق

بكتاب السكاكي من قيود منطقية وفلسفية وكلامية ، كما أنه أتاح لدراسة البديع في كتابه من الكثرة ما لم يتح لها في مفتاح السكاكي ، فقد ذكر ابن مالك من البديع في كتابه أربعة وخمسين نوعاً ، ولم يكن للسكاكي في المفتاح سوى ستة وعشرين نوعاً فقط .

كما أن بدر الدين بن مالك تابعَ السكاكي في إرجاع المحسنات البديعية إلى الفصاحة اللفظية والمعنوية ، غير أنه انفرد عن السكاكي وغيره بأن جعل المعنوية قسمين : أحدهما يئول إلى الإفهام والتبيين ، مثل (المذهب الكلامي) والتتميم ، والتقسيم ، والاحتراس ، والتذييل ، والاعتراض ، والتجريد والمبالغة ، والقسم الآخر يئول إلى التزيين ، والتحسين ، مثل اللف والنشر ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق .

ثم يتوالى بعد ذلك الملخصون والشراح والناظمون ، وهي الفترة التي يطلق عليها فترة الجمود أو التقليد .

ولم يكتب النجاح والتوفيق لأحد ممن اتجهوا إلى تلخيص أو نظم الجزء الثالث من (مفتاح العلوم) أكثر مما كتب للبلاغي المعروف :

الخطيب القزويني - المتوفي سنة ٧٣٩ هـ -

أطلق القزويني على كتابه اسم (تلخيص المفتاح) وفيه يتضح أن القزويني لم يكن متأثراً بالسكاكي وحسب ، بل بالسابقين معظمهم ، كالخفاجي ، وعبد القاهر ، وابن الأثير ، وابن رشيق ، وأبي هلال ، وابن أبي الإصبع وغيرهم .

وقد أجاد القزويني في كتابه ترتيب المسائل البلاغية وتبويبها بدقة وفهم ، ولم يكن ينقصه غير الانسلاخ من الحدود المنطقية والفلسفية ، والإكثار من الشواهد الأدبية ، والنصوص المفيدة في تربية الذوق والوجدان ، وتكوين القدرات والملكات .

وقد شعر الخطيب القزويني بما يشيع في كتابه من غموض وإبهام ، فعمد

إلى تأليف كتاب آخر يجلِّي فيه ما غمض ، ويوضح ما أبهم في التلخيص ، فأطلق على هذا الكتاب اسم (الإيضاح في علوم البلاغة) استدرك فيه ما فاته في التلخيص ، فأكثر من الشواهد والأمثلة ، وزاد فيه نوعاً من البديع هو (الاستطراد) ، فكان للكتاب وسابقه ما كان من شهرة وذيوع ورواج وإعجاب حتى يومنا هذا .

ـ أما يحيى بن حمزة العلوي ـ المتوفي سنة ٧٤٩ هـ ـ

النحوي البلاغي الفقيه ، فله (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) .

والكتاب في علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وقد استوحي العلوي ما كتبه في البديع من كتاب بدر الدين بن مالك ، كما تأثر بابن الأثير والزملكاني والفخر الرازي ، واطلع على كتبهم .

ـ والتنوخي هو محمد بن عمرو التنوخي ، توفي في السنة نفسها التي توفي فيها بن حمزة العلوي سنة ٧٤٩ هـ .

وكتاب التنوخي (الأقصى القريب في علم البيان) يتبع فيه نهج ابن الأثير في اعتبار البلاغة وحدة عضوية غير منقسمة إلى معان وبيان وبديع ، وإن كان يخالف ابن الأثير في الأسلوب والمعالجة ، إذ يعتمد التنوخي على حدود المنطق والفلسفة والنحو .

ابن قَيِّم الجوزية ـ المتوفي سنة ٧٥١ هـ ـ

هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيِّم الجوزية .

وكان عالماً فقيهاً ، مفسراً ، لغوياً ، نحوياً ، محدثاً ، أصولياً ، كان يلازم ابن تيمية ، لم يفازقه حتى في معتقله بقلعة دمشق .

من مؤلفات ابن القيم (كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم

البيان) . وفي مقدمة الكتاب بحث بعض فنون البيان من استعارة وتمثيل وحقيقة ومجاز . وفي القسم الأول منه يحصى من محسنات البديع المعنوية ثمانين نوعاً . وفي القسم الثاني يبحث من المحسنات البديعية اللفظية أربعة وعشرين نوعاً ، وكلها ترديد لما قاله السلف ، وتجميع يعوزه الترتيب والدقة والتبويب .

ـ صفيّ الدين الحِلّي ـ المتوفي سنة ٧٥٠ هـ ـ

شاعر مشهور ، درس المعاني والبيان ، وألّف فيهما ، كان يعمل بالتجارة ، ويزور أقطاراً كثيرة فيمدح إبّان رحلته ملوكاً وأعياناً وأمراء .

وللحِلّي ثاني بديعية بعد الاربلي ، وبديعية الحِلّي قوامها مائة وخمسون بيتاً[1] في مدح الرسول ﷺ ، وهي من بحر البسيط ، نسجها على منوال بردة البوصيري وزناً وقافية ومضموناً ، وسماها (الكافية البديعية في المدائح النبوية) . ومطلعها :

إن جئتَ سَلْعاً فسلْ عن جيرةِ العَلَمِ   واقْرِ السلامَ على عُربٍ بذي سَلَمِ

وتشتمل بديعية الحِلّي على مائة وخمسة وأربعين نوعاً من المحسنات البديعية ، والخمسة الأبيات الأولى منها في الجناس أحصت منه اثنى عشر نوعاً ، ومطلع القصيدة يحتوي على حسن الابتداء أو براعة الاستهلال وفيه أيضاً من الجناس (سَلام وسَلَم) و(عَلَم وسَلَم) .

وتختلف بديعية صفيّ الدين عن سابقتها بديعية الإربلي في أن بديعية الحِلّي لا يلتزم فيها بذكر النوع البديعي إزاء كل بيت تجنباً للتعقيد ، واكتفاءً بالمثال ، وقد شرح عبد الغني النابلسي بديعية الحِلّي ، وسمى الشرح (الجوهر السَّنِي في شرح بديعية الحِلّي) .

ـ وابن جابر الأندلسي ـ المتوفي سنة ٧٨٠ هـ ـ

له بديعية ميمية القافية ، بحرها من البسيط ، واسمها (الحُلَّة السِّيرا في مدح خير الورى) . انتهج فيها نهج بديعية الحِلّي ، وقام صاحبه أبو جعفر

---

(١) عدتها عند الحملاوي مائة وواحد وخمسون بيتاً ، (زهر الربيع) ص ١٥٧ .

بشرحها . تتألف بديعية ابن جابر من مائة وسبعة وعشرين بيتاً ، يقول مطلع البديعية .

بطيبةَ انْزِلْ ويَمِّمْ سيِّدَ الأُمَمِ   وانْثُرْ لَهُ الْمَدْحَ وانْشُرْ أَطْيَبَ الْكَلِمِ

وشارح البديعية أبو جعفر ، يشير في مقدمة شرحه إلى أن ابن جابر الأندلسي التزم في بديعيته بمنهج الخطيب القزويني في (التلخيص) و(الإيضاح) ، وهو يسرد في القصيدة المحسنات البديعية التي قصر القصيدة عليها دون خلطها بغيرها من ألوان البديع ، ولم يذكر ابن جابر اسم المحسِّن البديعي في كل بيت ، وهو في ذلك يجارى بديعية صفي الدين الحلّى ، غير أنه اقتصر على ما يقرب من ستين فناً من فنون البديع مقدماً المحسنات اللفظية على المعنوية .

ـ وعز الدين الموصلي ـ المتوفي سنة ٧٨٩ هـ ـ

ضمن رهط الناظمين ، اقتدى بمن قبله وخصوصاً صفي الدين الحلى .

تبدأ بديعية الموصلي بقوله :

بَراعةٌ تَسْتَهِلُّ الدمعَ في العَلَمِ   عبارةٌ عن نِداءِ المُفْرَدِ العَلَم

وتقع البديعية في مائة وخمسة وأربعين بيتاً ، يعارض بها بديعية الحلّى ، غير أنه يذكر مسمى النوع البديعي في كل بيت بالتورية أو الاستخدام .

وللموصلي بديعية أخرى لامية ، التزم فيها بوزن قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) .

وينقضي القرن الثامن ، ويهل التاسع الهجري وما يليه ، والبديع ما يزال في معظم دراساته ينهج طريقة النظم ، وممن التزم هذا النهج النظمي في دراسة البديع آنذاك .

ـ ابن حجة الحموي ـ المتوفي سنة ٨٣٧ هـ ـ

وله كثير من المصنفات نظماً ونثراً ، أما بديعيته المشهورة فقوامها مائة واثنان وأربعون بيتاً ،

يقول مطلعها :

لي في ابتِدَا مَدْحِكُمْ يا عُرْبَ ذي سَلَمِ   براعةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمعَ في الْعَلَمِ

والبديعية من المدائح النبوية ، يُضَمِّن فيها ألفاظَ كل بيت ما يشير إلى النوع البديعي ، مقتدياً في ذلك بالموصلي ، غير أنه خلط فيها بين اللفظي والمعنوي دون ما فصل أو تحديد ، ولعل صعوبة تطويع أسماء بعض الأنواع البديعية للنظم ، جعله يخالف من سبقوه في مسميات بعض الأنواع في بديعيته .

وربما شعر ابن حجة بذلك فقام بشرح بديعيته شرحاً مسهباً في كتاب أطلق عليه : (خزانة الأدب) فكان مضمون الكتاب محققاً لعنوانه ، لما احتواه الكتاب من علوم ومعارف متنوعة ، تؤيدها الشواهد والأمثلة ، مما جعل هذا الشرح خزانة أدب وبلاغة ونقد وتاريخ وتراجم ، مع المنظوم والمنثور من كلام الأيوبيين والمملوكيين .

ـ والسيوطي ـ المتوفي سنة ٩١١ هـ ـ

هو جلال الدين بن عبد الرحمن بن الكمال الخضيري .

له بديعية سماها (نظم البديع في مدح خير شفيع) أراد بها محاكاة بديعية الحموي ، فوضع لها شرحاً ، غير أن البديعية وشرحها ، لم يكتب لهما ما كتب لبديعية الحموي وشرحها .

ـ أما عائشة الباعونية ـ المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ ـ

فهي شاعرة أطراها كثيرون من أهل العلم ، ويورد الحموي في خزانته[١] ما وصفها به الشيخ عبد الغني النابلسي بقوله :

(إنها فاضلة، ومن تآليفها هذه البديعية المسماة بالفتح المبين في مدح الأمين، نظمتها على منوال تقي الدين بن حجة ، مع عدم تسمية النوع ـ البديعي ـ تمسكاً بطلاقة الألفاظ ، وانسجام الكلمات ، وشرحتها بهذا الشرح المختصر الذي أسفرت فيه عن لسان البيان بقدر الطاقة والإمكان ، ولها ديوان شعر بديع في

(١) خزانة الأدب ص ٤ .

المدائح النبوية كله لطائف ، ومن تآليفها ، مولد جليل للنبي ﷺ ، اشتمل على فرائد النظم والنثر) .

وبديعية عائشة الباعونية التي عَرَّفَنا بها الشيخُ النابلسي ، مطلعها :

في حُسْنِ مَطْلَعِ أقماري بِـذي سَلَمِ أَصْبَحْتُ في زُمْـرَةِ العُشَّـاقِ كـالْعَلَمِ

ـ وصدر الدين الحسيني ـ المتوفي سنة ١١١٧ هـ ـ

يبدأ بديعيته بقوله :

حُسْنُ ابْتِدائِي بِذِكْـرَى جيرةِ الْحَـرَمِ لــه بــراعــةُ شَــوْقٍ تَسْتَـحِـلُّ دَمِي

وقد ضمَّن أبياتها أسماء الأنواع البديعية ، ووضع لها أيضاً شـرحاً سمـاه (أنوار الربيع في أنواع البديع) مجارياً في ذلك ابن حجة الحموي .

ـ والشيخ عبد الغني النابلسي ـ المتوفي سنة ١١٤٣ هـ ـ

من ذوي الشهرة في ميدان النظم البديعي ، وله بديعيتان ، كل منهما يبلغ مائة وخمسين بيتاً ، وبهما مائة وخمسة وخمسون نوعاً من البديع .

الأولى لم يلتزم فيها بذكر المُحَسِّن البديعي في الأبيات ، صنيـعَ الحِلِّي والباعونية ، وأطلق عليها (نسمات الأسحار في مدح النبي المختار) ومطلعها :

يـا مَنْـزِلَ الــركْبِ بين البـانِ والعَلَمِ مِنْ سَفْـحِ كـاظمـةٍ حُيِّيتَ بـالــدِّيَمِ

ووضع لها شرحاً سماه (نفحات الأزهار) .

أما البديعية الثانية ، فقد ضَمَّنَ أبياتها اسم المحسن البديعي ، وسجل كل بيت فيها مقابل مثيله في هامش البديعية الأولى ، ومـطلع هذه البـديعية الثـانية يقول :

يا حُسْنَ مَطْلَعِ مَنْ أَهْوَى بِذِي سَلَمِ بَـراعـةُ الشَّـوقِ في اسْتِهْـلالِهـا أَلَمِي

ولهذه البديعية شرح أودعه القلعي مع البديعيات العشر .

ـ أما البيروتي ـ المتوفي سنة ١٢٢٦ هـ ـ

فهو السيد أحمد البربير البيروتي دمياطي المولد ، بيروتي النشأة ، ومات بدمشق .

كان البيروتي شاعراً أديباً ، وله بديعية على بيتين من قصيدة الموصلي ، سماها (الشرح الجليّ على بيتيّ الموصليّ) والبيتان هما :

إنْ مَـــرَّ والمـرآةُ يـــومـــاً في يـــدي ... من خلفـه ذو اللطف أُسْمَى مَنْ سَمَا

وارتْ تمـــاثيـل الـــزجـاج ولم تـــزلْ ... تَقْفُـــوه عَـــدْواً حـيْثُ ســـار وَيَـمَّـمَـــا

وصاحب البيتين هو عبد الرحمن الموصلي ، من شعراء القرن الثامن عشر الميلادي . وقد قام البيروتي بوضع كتاب كامل في شرح هذين البيتين ، ضَمَّنه الكثير من فنون الأدب .

وللبيروتي أيضاً مقامات كمقامات الحريري تسمى (مقامات البربير) ولـه أيضاً بديعية يمدح فيها الرسول الكريم ضمنها كثيراً من ألـوان البديـع ، وعليها شرح .

ـ والساعاتي ـ المتوفي سنة ١٢٤١ هـ ـ

هو محمود صفوت الساعاتي ، الشاعر المصري المُجيد ، وفي ديوانه بديعية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . تبلغ مائة واثنين وأربعين بيتاً . وذكر في أبياتها أسماء المحسنات البديعية ، وهو يعارض ببـديعيته ابن حجـة الحموي ، ومطلع بديعية الساعاتي يقول :

سفْحُ الدُّمـوعِ لذكـرِ السَّفْحِ والْعَلَمِ ... أبـدى البـراعـةَ في اسْتِهْـلاَلِـهِ بِـدِمِ

الفصل الثاني

معالم البديع في أدب القدماء والمحدثين

١ ـ القدماء

٢ ـ المحدثون





أولاً : معالم البديع في أدب القدماء[1] :

مما سبق عرفنا أن ابن المعتز هو مؤسس علم البديع ، وواضع لبناته الأولى التي أكمل بناءها من جاء بعده حتى استوى علماً مستقلاً ، وضلعاً قائماً بذاته من أضلاع المثلث البلاغي : المعاني والبيان والبديع . وعرفنا كذلك أن البديع هو وجوه تحسين الكلام وتزيينه وتنسيقه وزخرفته ، وأن من هذه المحسنات ما هو متعلق باللفظ ، ومنها ما هو متعلق بالمعنى مع اعتبار اللفظ .

وصناعة الكلام بعامة ، والشعر على وجه الخصوص ، صناعة لا تقوم إلا على أساس من الفن دقيق ، يعطيه صفة الشعر ، ويكسبه القدرة على استمالة القلوب ، واجتذاب الأسماع ، وما مقومات ذلك كله غير محسنات القول سواء أكان التحسين واقعاً في اللفظ أم كان مناطاً به المعنى .

وليس اختراع ابن المعتز للبديع ، ووضعه أسسه . يعني أن الكلام قبل ابن المعتز كان خلوا من فنون تحسينه وتزيينه ، بل كان كلام العرب شعره ونثره منذ قديم مشتملاً على وجوه حسنه ومقومات جماله التي أحسّ بها أهلها ونوهوا بالكثير منها حتى جاء ابن المعتز فجمع منها ما استطاع ، وأعطاها اسم (البديع) .

ودليل وفرة البديع في كلام العرب أن ابن المعتز (٢٩٦ هـ) لم يأت على أنواعه كلها ، بل ظل باب اكتشاف المحسنات وتجميعها وتبويبها مفتوحاً بعده حتى

---

(١) من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري .

نهاية القرن السابع الهجري ، وحلول فترة الجمود والتوقف ، وطواف الباحثين بعد ذلك حول ما تم اكتشافه وجمعه، شارحين ، ملخصين ناظمين مقلدين .

وقد نبه علماء العربية ، ومكتشفو البديع أنفسهم إلى وجود الصناعة الفنية والمحسنات في كلام العرب منذ الجاهلية ، فابن المعتز يقول[١] : (قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة، وأحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا وسَلَماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن) . ثم يقول في الموضع نفسه : (وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع) .

وإن كان هناك فرق في هذا الصدد بين القدماء والمحدثين ، فهو أن البديع وتحسين الكلام عند القدماء جاء عفو الخاطر ، من فيض الفطرة السليمة ، والذوق المطبوع ، دون أن يعرف القدماء للمحسنات أسماء ولا مصطلحات ،فجاءوا بها في كلامهم دون إعنات أو تكلف يؤدي إلى طغيان اللفظ على المعنى .

وإذا وسمنا أحدهم أو بعضهم بالتكلف ، فإنه ليس تكلف المبالغة أو الاحتفال باللفظ على حساب المعنى ، بل هو التكلف الذي يعنيه ابن قتيبة في قوله[٢] : (ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذي قوَّم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر) . وليست الصنعة عند القدماء كصنعة المولدين ، بل هي على حد قول ابن رشيق[٣] : (ومن الشعر المطبوع والمصنوع ، فالمطبوع هو الأصل وعليه المدار ، والمصنوع ـ وإن وقع عليه هذا الاسم ـ فليس متكلِّفا تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ، ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على

---

(١) كتاب البديع ص ٣ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٧ .

(٣) العمدة جـ ١ ص ١٠٨ .

وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك) .

وقد بين الجاحظ لنا أن حوليات العرب ، لم يكن تحكيكهم لها ، وطول تقليب نظرهم فيها ، إلا حرصاً على الجودة وطلباً للكمال فيقول[1] :

(ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، اشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته) .

وكان الأصمعي يسمى أصحاب الحوليات مثل (زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر)[2] .

فهؤلاء المنقحون من عبيد الشعر وإن وصفوا بالتكلف ، فإن تكلفهم كما يقول ابن رشيق[3] : (ليس من جنس التكلف الذي اتصف به المحدثون ، بل كانوا حريصين على ألا تخرج أشعارهم للناس إلا بعد تهذيبها ، ولم يكن هذا التهذيب إلا طرح ما لا يحتاج إليه المعنى ، إبعاد معنى لا روعة له ولا قوة ، أو تغيير عبارة بأختها ، أو لفظة بغيرها أتم منها وأكمل) .

ومهما حاولنا إنصاف القدماء فلن نأتي بأبلغ مما أوردناه من أحكام علماء العربية الثقات الذين أنصفوا القدماء من المحدثين في استخدام المحسنات في كلامهم ، وأشاروا إلى أن الشاعر القديم وإن حسّن شعره بطباق وزيّنه بجناس ، وجمّله بمقابلة ، فإن ذلك لم يكن عن عمد أو تصنع ، بل ان العرب كما قال ابن رشيق[4] : (لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٧ .

(٢) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٧ . ومن عبيد الشعر أيضاً طفيل الغنوى والنابغة الذبياني وعدى بن الرقاع وغيرهم .

(٣) العمدة جـ ١ ص ١١٢ .

(٤) السابق جـ ص ١٠٨ .

للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض) . بل كانت العرب كما قال القاضي الجرجاني[1] : (تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحتفل بالإبداع والإستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد) .

فالقاضي الجرجاني هنا لم ينف وجود المحسنات في شعر الجاهلية ، بل يقصد أنها وردت في شعرهم عفوا على غير تعمد وقصد ، دون احتفال بها ومبالغة فيها ، وهنا يرى الدكتور محمد مصطفى هدارة أن (مسألة العفوية والتعمد هذه مسألة اعتبارية محضة تتدخل فيها عناصر ثقافة الشاعر نفسه ، ودرجة تخيله ، كما تتدخل فيها عناصر الإلهام ووسائله)[2] .

وقد قام صاحب الصبغ البديعي بتقصي أنواع البديع التي طرقها القدماء من جاهليين وإسلاميين ، دون أن يكونوا عارفين لأسمائها العلمية الاصطلاحية ، وقد ساير في استقصائه الخطيب القزويني بما أورده من شواهد في كتاب (الإيضاح) بادئاً شواهده في كل نوع بالشعر الجاهلي ثم بالقرآن الكريم والحديث ، ثم الأدب الإسلامي حتى القرن الثاني الهجري .

وقد استطاع أن يحصر اثنين وثلاثين نوعاً بديعياً[3] طرقها الأقدمون ، منها ستة وعشرون نوعاً مما عرف بالمحسنات المعنوية ، وستة أنواع مما عرف بالمحسنات اللفظية .

---

(١) الوساطة ص ٣٧ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٦٠١ .

(٣) الصبغ البديعي ص ٢٦ ـ ٤١ .

ونورد هنا خلاصة لما طرقه القدماء من أنواع البديع بترتيب مصنفها المأخوذ من كتاب (الإيضاح) ، مشفوعة بما ورد منها في القرآن الكريم والحديث الشريف .

أولاً : المحسنات المعنوية : -

١ - الطباق : -

ومنه قول امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كَجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيلُ مِنْ عَلِ

فهو يطابق بين الكرّ والفرّ وبين الإقبال والإدبار .

ومنه قول النابغة الجعدي :

فَتىً تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقَه   على أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعادِيا

فهو يقابل بين يسرّ الصديق ويسوء الأعادي .

ومن الطباق قوله تعالى : ﴿ **قل اللَّهُمَّ مالكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تشاءُ وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء ، بيدكَ الخيرُ إنك على كل شيء قدير** ﴾[1] .

وقول الرسول ﷺ : (انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع) .

٢ - مراعاة النظير : -

ومنه قول امرىء القيس يجمع بين الأمور المتناسبة مما هو ظاهر :

فَدَمْعُهُمَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ   وَرَشٌّ وتَوْكَافٌ وتَنْهَمِلانِ[2]

ومنه قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾[3] ومن تشابه الأطراف قوله تعالى :

---

(١) آل عمران ٢٦ .

(٢) سحّ : من سحّ يسحّ أي سال يسيل ، والديمة هي المطر الذي لا يصاحبه برق ورعد . وتوكاف : من الفعل وَكَفَ أي قَطَر . تنهملان : تفيضان .

(٣) الرحمن آية ٥ .

﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾[1] .

ومنه قول ذي الرُّمَّةِ :

لَمْيَاءُ في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ   وفي اللّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ[2]

٣ - الإرصاد : -

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومَنْ يَعِشْ   ثَمانينَ حَوْلاً - لا أبا لكَ - يَسْأَمِ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون** ﴾[3] .

٤ - المشاكلة : -

ومنها قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا   فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا

ومنها قوله تعالى : ﴿ **وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها** ﴾ .

٥ - الاستطراد : -

ومنه قول السموءل وهو أول من نطق به كما قال ابن رشيق[4] :

وإنا لقومٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً   إذا ما رأتْهُ عامرٌ وَسَلُولُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سَوْءاتِكم وريشاً ، ولباسُ التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذّكرون** ﴾[5] .

---

(١) الأنعام ١٠٣ .

(٢) لمياء : سمراء الشفة وهي علامة حسن عندهم . اللعَس : ميل إلى السواد في الشفة . الشنب : برودة الريق وعذوبته ، أو حدة الأسنان .

(٣) العنكبوت بعض الأية ٤٠ .

(٤) العمدة جـ٢ ص ٣٧ .

(٥) الأعراف ٢٦ . يواري : يستر- سؤاتكم : عوراتكم . ريشا : لباسا فاخرا .

ومنه قول جرير :

لمـا وضعتُ على الفـرزدقِ ميسِمِي　　وضغا البعيثُ جَدَعْتُ أنْفَ الأخْطَلِ[1]

٦ ـ العكس والتبديل : ـ

ومنه قول الأضبط بن قريع وهو جاهلي :

قـد يـجـمـع الـمـالَ غـيـرُ آكِـلِهِ　　ويـأكـلُ المـالَ غيـرُ مَنْ جَمَعَـهْ
ويـقـطعُ الـثـوبَ غـيـرُ لابِـسِـهِ　　ويـلبسُ الـثـوبَ غـيـرُ مَنْ قـطَعَـه

ومنه قوله تعالى : ﴿ يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ويخرجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .

ومنه قول عبد الله بن الزبير الأسدي :

فَـرَدَّ شـعـورَهُـنَّ الـسـودَ بِـيضـاً　　وَرَدَّ وُجُـوهَـهـنَّ الـبـيـضَ سُـودَا

٧ ـ الرجوع : ـ

ومنه قول زهير بن أبي سُلْمَى :

قِفْ بـالـدِّيـارِ الَّتي لَمْ يَعْفُهـا الْقِـدَمُ　　بَـلَى وغَـيَّـرهَـا الأَرْواحُ والـدِّيَـمُ

ومنه قول حسان بن ثابت :

لا أسْـرِقُ الـشّـعـراءَ مـا نَـطَقُـوا　　بَـلْ لا يُـوافِقُ شِعْـرَهـم شِعْـرى

٨ ـ التورية : ـ

ومنها قول النابغة الذبياني :

خيـلٌ صيامٌ وخيـلٌ غيرُ صـائمةٍ　　تحت العَجَاجِ وأُخْرى تَعْلُكُ اللُّجُما[2]

ومنهما قوله تعالى : ﴿ الرحمنُ على العرش استوى ﴾[3] والمراد استولى .

ومنها قول الشاعر الإسلامي يحيى بن منصور الحنفي :

---

(١) ضغا : أي استخْذى ـ الميسم : المكواة . جدعت أنفه : قطعتها .

(٢) العجاج : التراب . تعلك : تمضغ . اللجم : جمع لجام . والتورية هنا في (صيام) إذ المعنى القريب وهو الإمساك عن الطعام ، وهو يعني الإمساك عن السير وهو من معاني الكلمة .

(٣) طه ـ ٥ ـ .

فلمـا نَـأَتْ عنـا العشيـرةُ كلُّهـا أَنَخْنَا فَحالَفْنَا السيوفَ على الدَّهْـرِ
فمـا أَسْلَمَتْنا عِنْـدَ يـومِ كَـريهـةٍ ولا نحنُ أَغْضَيْنَا الجُفُـونَ على وِتْـرِ

قال صاحب الإيضاح : (المراد به إغماد السيوف ، فإن الإغضاء مما يلائم جفن العين لا جفن السيف ، وإن كان المراد به إغماد السيوف ، لأن السيف إذا أغمد انطبق الجفن عليه ، وإذا جرد انفتح للخلاء الذي بين الدّفتين)[1] .

٩ ـ الاستخدام : ـ

ومنه قوله تعالى : (لكل أجلٍ كتاب ـ يمحو الله ما يشاء ويُثْبِت) قال ابن حجة الحموي[2] : (فإن لفظة كتاب يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ، والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظتي أجل ويمحو فاستخدمت (في) أحد مفهوميها وهو الأمد بقرينة ذكر الأجل . واستخدمت في المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب بقرينة يمحو) .

وقال معاوية بن مالك ـ وقيل جرير في بعض المصادر :

إذا نَـزَلَ الـسَّمـاءُ بـأرضِ قَـوْمٍ رعـينـاه وإنْ كـانـوا غِـضـابَـا[3]

١٠ ـ اللف والنشر : ـ

ومنه قول امرىء القيس :

كـأنَّ قلوبَ الـطيـرِ رَطْبـاً ويـابِسًـا لَدَى وَكْرِهـا العُنَّابُ والحَشَفُ البـالي

ومنه قولـه تعالى : ﴿ ومن رحمتـه جعل لكم الليـلَ والنهارَ لتسكنـوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾[4] .

١١ ـ الجمع : ـ

ومنه قوله تعالى : ﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾[5] .

---

(١) الإيضاح ص ٥٠٠ .
(٢) الخزانة ص ٦٥ .
(٣) أراد بالسماء الغيث وبضميرها في كلمة (رعيناه) النَّبْت .
(٤) القصص ـ بعض الآية ٧٣ .
(٥) الكهف ـ بعض الآية ٤٦ .

وقول النبي ﷺ : (مَنْ أصبح آمنا في سِرْبِه مُعَافىً في بدنه ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها) .

١٢ ـ التقسيم : ـ

ومنه قول زهير بن أبي سُلْمَى :

فـإنَّ الـحـقَّ مَـقْـطَعُـه ثـلاثُ ... أداءٌ أو نـفـادٌ أَوْ جَـلاءُ

ومن قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يُريكُمُ البرقَ خوفاً وطمعاً** ﴾ .

ومنه قول نُصَيْب :

فقـال فـريقُ القـومِ لا ، وفـريقُهُم ... نَعَمْ ، وفريقٌ قال : وَيْحَـكَ لا أدري

ووقف أعرابي على مجلس الحسن البصري فقال : (رحم الله عبدا أعطى من سعة ، أو آسى من كفاف ، أو آثر من قلة) فقال الحسن البصري : (ما ترك لأحد عذراً)[١] .

١٣ ـ الجمع مع التفريق : ـ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا الليلَ والنهار آيتينِ فمحونا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَة** ﴾[٢] .

١٤ ـ الجمع مع التقسيم :

ومنه قول حسان بن ثابت :

قـومٌ إذا حـاربـوا ضَـرُّوا عَـدُوَّهُمُ ... أو حـاولوا النفـعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُـوا
سجيـةٌ تلكَ فيـهمْ غيـرُ مُحْـدَثَـةٍ ... إنَّ الخـلائقَ فـاعلمْ شَـرُّهـا الْبِـدَعُ

١٥ ـ الجمع مع التفريق والتقسيم : ـ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **يوم يأتي لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذْنِهِ ، فمنهم شَقِيٌّ وسعيدٌ فأما الـذين شَقُوا ففي النـارِ ، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ ، خالـدين فيها مـا دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ رَبُّكَ ، إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد ، وأما الذين سَعِدُوا**

(١) المثل السائر ص٢٩٣ .

(٢) الإسراء ـ بعض الآية ١٢ .

ففي الجنة خالدين فيها ، ما دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ رَبُّكَ ، عطاءً غيرَ مَجْذُوذٍ ﴾[1] .

قال القزويني[2] : (أما الجمع ففي قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي لا تكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ﴾ فإن قوله (نفس) متعدد معنى ، لأن النكرة في سياق النفس تعم ، وأما التفريق ففي قوله ﴿ فمنهم شقيّ وسعيد ﴾ وأما التقسيم ففي قوله : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ إلى آخر الأية) .

ومن استيفاء أقسام الشيء قولُ زهير بن أبي سلمى :

وأَعْـلَمُ عِلْمَ الْـيَـوْمِ والأَمْسِ قَبْـلَه ... ولكنَّنِي عن عِلْمِ مـا فـي غـدٍ عَمِ

١٦ ـ التجريد : ـ

ومنه قول الأعشى :

يـا خيـرَ من يـركـب المـطّى ولا ... يشـربُ كـأسـاً بكـفِّ مَنْ بَـخِـلاَ

وقوله تعالى : ﴿ لهم فيها دارُ الخُلْدِ ﴾[3] .

وقول أرصاة بن سُهَيَّه :

إنْ تَلْقَنِي لا تَـرَى غَيْـرِي بِنـاظِـرَةٍ ... تَنْسَى السِّلاحَ وتَعْرِفُ جَبْهَـةَ الأَسَـدِ

١٧ ـ المبالغة :

ومنها قول المهلهل مغاليا :

فَلَوْلاَ الـريـحُ أسْمَـعَ مَنْ بِحُـجْـرٍ ... صَليـلَ الْبَيْضِ تُقْـرَعُ بـالـذُّكـورِ

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب . فبين حجر وهي قصبة اليمامة وبين مكان الوقعة عشرة أيام .

ومنها قول زهير بن أبى سُلْمَى :

---

(١) سورة هود ١٠٥ ـ ١٠٨ . مجذوذ : مقطوع .

(٢) الإيضاح ص ٥٠٩ .

(٣) فصلت ـ بعض الأية : ٢٨ .

لَوْ كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ   قَوْمٌ بَأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

١٨ - المذهب الكلامي : -

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وما يكُ مِنْ خيرٍ أَتَوْه فإنَّما   تَوَارَثَه آباءُ آبائهم قبلُ
وهل يُنْبِتُ الخطِّي إلا وشيجُه   وتَنْبُتُ إلا في مَنَابِتِها النَّخْلُ

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾(١) .

ومنه قول الفرزدق :

بِكُلِّ امْرِئٍ نَفْسانِ : نَفْسٌ كريمةٌ   وأُخْرَى يعَاصِيها الفَتَى ويُطِيعُهَا
ونفسُكَ من نَفْسَيكِ تَشْفَعُ لِلنَّدَى   إذا قَلَّ مِنْ أحرارِهنَّ شَفِيعُهَا

١٩ - حُسْنُ التَّعْلِيلِ : -

ويقول صاحب (الصيغ البديعي)(٢) : (أما حسن التعليل فلم أظفر له بمثال جاهلي ، وليس ذلك بغريب ، فالقوم مجبولون على تعليل - إن عللوها - تعليلاً حقيقياً مطابقاً للواقع ، ولا كذلك حسن التعليل مع ما فيه من خلابة وسحر واعتماد على الخيال ، وكذلك لم أجد له شاهدا من القرآن أو السنة ، وليس ذلك بغريب للعلة السابقة) .

غير أنه أورد بيتاً للنجاشي - وهو شاعر إسلامي - يهجو فيه بني العجلان :

وما سمى العجلان إلا لقوله . . خذ القَعْبَ واحْلِبْ أيها العبدُ واعْجِلِ .

ولا يكون البيت شاهداً صحيحاً لهذا النوع إلا إذا كان الشاعر يعني بقوله : (خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل) يعني الهجاء بصفة البخل والإقتار .

٢٠ - التفريع : -

ومنه قول الأعشي :

(١) الروم - بعض الأية ٢٧ .

(٢) ص ٣٥ - ٣٦ .

ما رَوْضةٌ من رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ غَنَّاءُ جادَ علَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الزَّهرَ منها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يوماً بأطْيَبَ مِنْها طِيبَ رائحَةٍ ولا بأحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأَجَلُ

ومنه قول الكميت :

أحلامُكُمْ لِسَقامِ الجَهْلِ شافِيَةٌ كما دِماؤُكُم تَشْفِي مِنَ الْكَلَبِ

٢١ - تأكيد المدح بما يشبه الذم : -

ومنه قول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

ومن قوله تعالى ﴿ **وما تَنْقِمُ منَّا إلا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لَمَّا جاءَتْنا** ﴾[1]

ومنه قول النابغة الجعدي :

فَتىً كَمُلَتْ أخْلاقُهُ غيرَ أنَّهُ جوادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقِيَا

٢٢ - التوجيه : -

ومنه قوله تعالى : ﴿ **واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعِنَا** ﴾[2] .

قال الزمخشري : (غير مُسْمَعٍ) حال من المخاطب ، أي : اسمعْ وأنت غير مُسْمَع وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذم ، أي : اسمع منا مدعوا عليك بـ (لا سَمِعتَ) لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع ، قالوا ذلك اتكالاً على أن قولهم (لا سمعت) دعوة مستجابة . أو اسمع غيرَ مجابٍ ما تدعو إليه ، ومعناه غير مُسْمَعٍ جواباً يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً .

أو اسمع غيرَ مُسْمَعٍ كلاماً ترضاه ، فسمعُك عنه نابٍ .

ويحتمل المدح . أي : اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهاً . من قولك (أَسْمَعَ فُلانٌ فُلاناً) إذا سَبَّهُ .

---

(١) الأعراف - بعض الآية ١٢٦ .

(٢) النساء - بعض الآية ٤٦ .

وكذلك قوله : (راعِنا) يحتمل (راعنا نكلمك) أي : ارقبنا وانتظرنـا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية ، أو سريانية كانوا يَتَسابُّونَ بها وهي (راعينا) ، فكانوا سخريةً بالدين وهُزْءاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام مُحْتَمِل ، ينوون بـه الشتيمة والإهانة ، ويُظهرون به التوقير والاحترام[1] .

٢٣ ـ الهزل الذي يراد به الجد : ـ

ومنه قول امرىء القيس :

أَيَقْتُلُنِي أَنّي شَغَفْتُ فُؤادَها ... كَما شَغَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي
وقد عَلِمَتْ سَلْمَى ـ وإنْ كان بَعْلَها ... بِأَنَّ الْفَتَى يَهْذِي وليسَ بِفَعَّالِ

والشاهد هنا قوله : (ليس بفعَّال) فظاهره هزل ، المراد منه الجد ، وهو يهجو به بعل سلمى .

٢٤ ـ تجاهل العارف :

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وما أَدْرِي وسَوْفَ إِخالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾[2] .

يقول القزويني : (وفي مجيء هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى ـ أي غير التعريض ـ وهي أنه يبعث المشركين على الفكر في حال أنفسهم وحال النبي ﷺ والمؤمنين)[3] .

وقول العَرْجِي (وقيل هو للمجنون ، وقيل لذى الرمة ، وقيل للحسين بن عبد الله) :

بِاللهِ يا ظَبَيَاتِ الْقاعِ قُلْنَ لَنا ... لَيْلايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ؟

---

(١) الإيضاح ص ٥٢٩ .
(٢) سبأ ـ بعض الآية ٢٤ .
(٣) الإيضاح ص ٥٣٢

٢٥ ـ القول بالموجب : ـ

ومنه قوله تعالى : ﴿ يقولون لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأذلَّ ، ولِلهِ العِزةُ ولرسولِهِ وللمُؤْمِنِينَ ﴾[١] .

٢٦ ـ الاطِّراد : ـ

ومنه قول الأعشى :

أَقَيْسَ بْنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ   وأنتَ امْـرُؤٌ تَـرْجُـو بَقَـاءَكَ وائِـلُ

ومنه قول النبي ﷺ : (الكريمُ ابنُ الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ اسحاقَ بنِ إبراهيم) .

ثانياً : من المحسنات اللفظة التي طرقها القدماء وعليها شواهد من القرآن والسنة :

١ ـ الجناس : ـ

ومنه قول امرىء القيس :

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بَعْدِ أرضِهِ   لِيَلْبَسن من دَائـهِ مـا تَلَبَّسَـا[٢]

ومنه قول النبي ﷺ : (اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ) .

ومنه قول خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار : (هَشَمَتْكَ هاشمٌ ، وأمَّتْكَ أُمَيَّةُ ، وخَزَمَتْكَ مَخْزُومٌ ، فأنْتَ ابنُ عَبْدِ دارِها ، ومُنْتَهَى عارِها) .

٢ ـ ردُّ العَجُزِ على الصَّدْر : ـ

ومنه قول امرىء القيس :

إذا المَـرْءُ لم يَخْـزنْ عليـهِ لِسانَـه   فَلَيْسَ عـلَى شـيءٍ سِـواهُ بِخَـزَّانِ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ، واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه ﴾[٣] .

---

(١) المنافقون ـ بعض الآية ٨ .

(٢) الطِّماح : ذو الشراهة .

(٣) الأحزاب ـ بعض الآية ٣٧ .

ومنه قول الشاعر الإسلامي الصِّمَّة بن عبد الله القشيري :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ من عَرَارِ[1]

وقول أبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو بن سفيان) :

وما كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

٣ ـ لزوم ما لا يلزم : ـ

ومنه قول طرفة بن العبد :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المالَ يُكْسِبُ أَهْلَهُ فُضُوحاً إذا لَمْ يُعْطَ منه نَواسِبُهْ

أَرَى كُلَّ مالٍ لا مَحالَةَ ذاهباً وأَفْضَلُهُ يَبْقَى وإِنْ ماتَ كاسِبُهْ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأما السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ** ﴾[2] .

ومنه قول الفرزدق :

مَنَعَ الحياةَ من الرِّجالِ ونَفْعَهَا حَدَقٌ تُقَلِّبُها النِّساءُ مِراضُ

وكَأَنَّ أفئِدَةَ الرِّجالِ إذا رَأَوْا حَدَقَ النِّساءِ لِنَبْلِهَا أَغْراضُ

٤ ـ القلب : ـ

ومنه قوله تعالى : ﴿ **كُلٌّ في فَلَكٍ** ﴾[3] . و﴿ **وربَّك فَكَبِّرْ** ﴾[4] .

٥ ـ الموازنة :

كقوله تعالى : ﴿ **ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾[5] .

٦ ـ السجع :

من السجع الفطري قول قَسِّ بن ساعدة الإيادي في الجاهلية[6] : (أيها

---

(١) العرار : النرجس البري .

(٢) الضحى ٩ ـ ١٠ .

(٣) الأنبياء بعض الآية ٣٣ .

(٤) المُدَّثِّر ـ ٣ .

(٥) الغاشية ـ ١٥ ـ ١٦ .

(٦) جمهرة خطب العرب جـ ١ ص ٣٥ .

الناسُ اسمعوا وَعُوا . مَنْ عاشَ ماتَ ، ومَنْ ماتَ فات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت ليلٌ داج ، ونهارٌ ساج ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ، ونَجومٌ تَزْهَر ، وبحارٌ تَزْخر . . . الخ) .

وقول عبد المطلب بن هاشم يهنيء سيفَ بنَ ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة[1] : (إنَّ الله تعالى ـ أيها الملك ـ أحلَّك محلا رفيعا ، صعبا منيعاً ، باذِخا شامخا ، وأنبتك مَنْبِتا طابتْ أرومَته ، وعَزَّتْ جُرْثومته ، وثَبتَ أصلُه ، وبَسَقَ فَرْعُه ، في أكرمِ مَعْدِنٍ ، وأطْيَبِ مَوْطِنٍ) .

ومن السجع المتكلَّف ـ سجع الكهان ـ قولُ سطيح بن مازن الكاهن العربي في تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك اليمن : (وأُحْلِفُ بما بين الحَرَّتين من حَنَشْ ، لَيَهْبِطَنَّ أرضَكُم الحَبَشْ ، وليملكنّ ما بين أَبْيَنَ إلى جَرَشْ) .

ومثله سجع شِقٍّ أنمار الكاهن ، في تعبير الرؤيا السابقة نفسها : (أُحْلِفُ بما بين الحَرَّتين من إنسان ، لينزلن أرضَكم السودان ، ولَيَغْلِبَن على كل طَفْلَةِ البنان ، وليملكن إلى ما بين أَبْيَنَ ونجران) .

وقول مسيلمة الكذاب : (يا ضفدع نقّي ، لِمَ تنقين ، لا الماءَ تُكَدِّرين ، ولا الشرابَ تمنعين)[2] .

ثانياً : معالم البديع في أدب المحدثين[3] :

عرفنا في الجزء السابق أن المحسنات البديعية كانت موجودة في كلام العرب منذ عصر القدماء في الجاهلية ، وإن كانوا لا يعرفون لها اسما علميا ، ولا مصطلحا فنيا مما عرفه المحدثون .

وعرفنا أيضاً أن هذه المحسنات لم تكن متعمَّدة ولا متكلَّفة ، ولا طاغية في

---

(١) السابق جـ ١ ص ٣١ .

(٢) نهاية الإيجاز للرازي ص ٣٤ .

(٣) المقصود بالمحدثين هنا الذين جاءوا في القرن الثاني وما يليه ، وقد آثرنا هذه التسمية مسايرة لجهود من كتبوا في هذا الصدد حتى يومنا .

كلام القدماء ، بل هي عفوية صادقة تأتي في مكانها الملائم بما يقتضيه حال الكلام .

فماذا حدث إذن من تغيير وتجديد في كلام هؤلاء القدماء ؟ وكيف ومتى حدث ؟ وما هي العوامل التي أدت إلى التغيير ؟ وما أهم سمات ذلك التغيير ؟

الذي حدث هو أن الكلام بوجه عام ، والشعر على وجه الخصوص لَبِسَ ثوباً جديداً ازدادت زخارفه ونقوشه ، وتعددت ألوانه وتعقدت خيوطه ، فبعد أن كان الشعر ينساب في مجراه الطبيعي سلساً عذب المورد ، تتوازن عناصر مقوماته ، بدأ الشعراء يُحدثون شيئاً من التغيير في تلك العناصر والمكونات ، فهذا يحتفل باللفظ زخرفة وتزويقاً وتنميقاً ، وذاك يغرب في المعنى ويعقّد ويفلسف ويمنطق ، وكلما مر جيل جاء بعده من يتبارى في صنعته ، حتى كاد الشعر في مرحلة متأخرة على مرحلة ابن المعتز يفقد شاعريته ، وأوشك على يد بعض الشعراء ألا يبقى منه إلا هيكل الوزن والقافية ، يقتات تارة بالأحاجي والألغاز والتأريخ ، وأخرى يعيش على نظم العلوم النحوية والدينية ، وغيرها .

وبطبيعة الحال لم يكن التغيير ليحدث فجأة ، فمسيرة الآداب لا تتحول بين عشية وضحاها ، ولا تتغير بفرمان سلطاني ، إذ الشعر من المعروف أنه تعبير عن وجدان الأفراد والجماعات ، وانعكاس لأحوال الشعوب والأمم بكل مقوماتها الحضارية ، ثقافية ، واقتصادية واجتماعية ، وبقدر ما يصيب الأمم والجماعات من تغير وتحول وتطور ، بقدر ما يلحق الشعر من تغير وتطور شكلاً ومضموناً .

وقد ظل الشعر العربي يؤدي دوره في المجتمع العربي ، في شبه الجزيرة العربية طوال زمن ما قبل الإسلام ، حتى جاء الإسلام فأحدث ما أحدث في الشعر من تغير في المفاهيم والمقاييس العقلية ، والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استوعبها الشعر جميعها وعبر عنها، ورغم ذلك ظل محتفظاً بطابعه ومنهجه تتكامل فيه عناصر الألفاظ والمعاني ، وإذا كان الإسلام قد ترك بصماته على الشعر فهذب خشونته ، ورقق ألفاظه وبخاصة عند الشعراء المسلمين الذين أُحْكَمَ حفظ القرآن أساليبهم وكساها روعة وإشراقاً ، فإن طابع الشعر وطريقته

ومعناه ، وجزالة ألفاظه وعباراته ، كل ذلك ظل امتداداً لما كان عليه قبل الإسلام ، حتى الشعر السياسي الذي جَدَّ على المجتمع العربي نتيجة الصراع على الحكم ، كان ينزع إلى الروح الجاهلية بسبب (سياسة التحزب التي جرى عليها الأميون فأحيوا العصبيات القبلية إحياء شديداً ، فانتفضت في الشعر وفي نفوس الناس انتفاضات جديدة صدمت شعور المسلمين المخلصين الذين يدعوهم إيمانهم إلى نبذ هذه الدعوات الجاهلية)[1] ، وظل شعراء العصر الإسلامي من أمثال جرير والفرزدق وذي الرمة والقطامي يسلكون نهج السابقين ، قريبين من زهير والنابغة والأعشى في طابع شعرهم وأغراضه ، ولذلك ظل علماء اللغة والنحو يحتجون بالشعر حتى أوائل القرن الثاني الهجري .

وبحلول القرن الثاني الهجري بدأ الشعر يخطو إلى التغيير بخطا حثيثة ، تبعا لما أصاب المجتمع من تغير سريع شمل معظم نواحي الحياة ، وكانت حدود الدولة الإسلامية قد اتسعت بالفتوح والغزوات ، وأطل العرب بأنظارهم وأفكارهم على حضارات جديدة ، وحياة تختلف عن حياة البداوة المحدودة بعادات معينة ، وتقاليد خاصة وتفكير يلتزم بقيم تلك الحياة ويقدسها .

وكان العباسيون في النصف الأول من القرن الثاني الهجري (١٣٢ هـ) قد تمكنوا من إسقاط الحكم الأموي الذي انهكته الخلافات الحزبية وبددت قواه ، ونقل العباسيون عاصمة الخلافة من الشام إلى العراق إمعانا في إعلان التأثير الفارسي ، فتحولت قبلة الشعراء والعلماء إلى العاصمة الجديدة يَغْشَوْنَ مجالس خلفائها منادمين مادحين ، ابتغاء إجزال العطاء ، وإغداق الهبات ، فظهر التكسب بالشعر ، وأثرى كثير من الشعراء ، ومنهم سَلْم الخاسر ، يقول ابن رشيق[2] : (وأما المجدودون في التكسب بالشعر ، والحُظوة عند الملوك ، فمنهم سَلْم الخاسر ، مات عن مائة ألف دينار ولم يترك وارثا) . وفي سَلْم الخاسر يقول صديقه أبو العتاهية بيته الذي سار شطره الثاني مثلاً بين الناس :

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص ٣٠ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٧٧ .

تَـعَـالَـى اللهُ يـا سَـلْمَ بْـنَ عَـمْـرٍو   أَذَلَّ الـحِـرْصُ أعـنـاقَ الـرِّجَـالِ

ويذكر ابن رشيق كثيرين غير سلم ممن تكسبوا بشعرهم ، وأغدق عليهم الخلفاء بعطاياهم ، فعاشوا حياة الترف والبذخ والنعيم ، يقول الأصفهاني[1] : (وكان المهدى يعطي مروانَ وسلماً الخاسر عطية واحدة ، فكان سَلْمٌ يأتي باب المهدى على البِرْذَوْنِ الفارِه قيمته عشر آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ، ولباسُه الخز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه) .

كان إذن من الطبيعي أن يحدث في الشعر تغيير يتفق وما طرأ على الحياة من تغيير اقتصادي وسياسي وثقافي واجتماعي ، إذ بلغت الدولة العربية في العصر العباسي درجة عالية من التحضر والإحساس بالأمان وما ينتج عن هذا الإحساس من بحث عن المتع والملذات ، ساعد على ارتيادها والانغماس فيها رخاء غزير ، ونعيم وفير ، يتدفق من كلِ أطراف الدولة الفتية الفسيحة ، فاستبدلت الحياةُ العربية بخشن الملبس خَزاً ، وبالمضارب والخيام قصوراً ، وبالرمال والأحجار طنافس وبسطا ، وبالعباءة مطارف وغلائل ، واستحالت الطبائع الجافية فيضاً من الرقة والنعومة والسلاسة ، ووقعت الأنظار على أبهى المناظر ، وأجمل المشاهد من حدائق غناء ، وبساتين فيحاء ، تجري من تحتها أنهار وغدران تبعث الحياة والجمال في كل شيء .

أضف إلى ذلك أن غلبة العنصر الفارسي إلى جانب حياة الترف والنعيم أتاحت الفرصة إلى ظهور عقائد ودعوات جديدة كالزندقة والشعوبية ، حيث أتيح للفرس إحياء تراثهم ، ونشر عقائدهم وبث أفكارهم ، فأخذ التحرر الديني والأخلاقي يجد له متسعاً في الأفكار والأقوال ، فظهر الغزل الماجن الذي تعدى أوصاف النساء إلى الغلمان ، وكثرت أوصاف الخمر ومجالسها وآثارها ، وكان أبو نواس زعيم هذا الاتجاه .

هذه الحياة الجديدة المتجددة ، كان من الطبيعي أن يستوعبها الشعر

---

(١) الأغاني جـ ٢١ ص ٧٨ .

ويصورها ويعبر عن كل ما أحدثته في الطبائع والوجدان والعقائد والمذاهب ، وبالتالي كان على الشعر أن يجد ويجدد وسائله التي تعينه على إبراز كل تلك الجوانب الجديدة العديدة ، فنشطت صناعة الشعر وراجت ، وتسابق الشعراء إلى وسائل التحسين ، وعناصر الزخرفة والتزيين ، لإبراز ما يحيط بهم من جمال ، وتصوير ما يعيشونه من رخاء وترف ، والتعبير عما أستوعبوه من ثقافات وعلوم جديدة غذتها حركة ترجمة نشطة لكثير من العلوم العقلية من فلسفة ومنطق وما شابه .

وكانت بداية هذه الحركة النشطة تسير في اتجاهين : اتجاه يترسم خطا القدماء في صناعة الشعر ، حافَظَ أصحابه على منهج الشعر القديم وصياغته وعموده ، لا يخرجون عنه إلا فيما دعتهم إليه صفات عقليتهم الجديدة ، ومن هؤلاء سَلَمُ الخاسر ، ودعبل الخزاعي ، ومروان ابن حفصة ، وعلي بن الجهم ، وابن الرومي ، والمتنبي .

وهذا الاتجاه وصفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (مذهب الصنعة والصانعين الذين كانوا يفهمون حرفتهم في الحدود التي رسمها زهير ، فهم يُعْنَوْنَ بألفاظهم وأساليبهم ، وصورهم البيانية في الدائرة التي كان يتصورها زهير)[1] والاتجاه الثاني كان أصحابه يجارون روح العصر ، تمشياً مع كل ما استجد في حياتهم ومجتمعهم ، ومنهم بشار ، وابن هرمة ، وأبو نواس ، والعتابي ، ومسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، والبحترى ، وابن المعتز .

وهذا الاتجاه وصفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (مذهب التصنيع والمصنعين الذي يعتمد على الأناقة في التعبير الفني والزخرف)[2] .

غير أن أصحاب الاتجاه الثاني وهم الذين يمثلون مذهب التجديد في الصنعة والإكثار من المحسنات البديعية ، لم يكونوا في نظر علماء العربية

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٤ .

(٢) انظر مناقشة الدكتور هدارة رأى الدكتور شوقي ضيف في موقف بشار من المذهبين . (اتجاهات الشعر ص ٦٠٥ - ٦١١) .

الأوائل ، على درجة متساوية من حيث عنايتهم واحتفالهم بالمحسنات ، إذ تباينت أحكام العلماء في اعتبار من يكون أسبقهم إلى هذا ، وأقدم آراء العلماء في ذلك هو رأي الجاحظ ـ رغم أن مصطلح البديع في وقت الجاحظ لم يكن قد تحدد بحدوده العلمية التي وضحت فيما بعد ـ يقول الجاحظ[1] : (ولم يكن في المولّدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة) .

والآمدي في حديثه عن البديع عند أبي تمام ، يقرر أن مسلم بن الوليد هو الأسبق[2] يقول : (ليس الأمر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ، ولا هو أوّلُ فيه ، ولا سابق إليه ، بل سلك في ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوه) .

ولكن الجرجاني يعتبر أبا تمام قدوة أهل البديع حين يقول عنه[3] : (وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قِبْلَةَ أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع) .

ويحكم ابن رشيق على مسلم بأنه أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفاً ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، وأنه زهير المولدين ، ثم يورد ابن رشيق تصنيفاً لأهل البديع فيقول[4] : (وقالوا . . . أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هرمة ، ثم اتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي ، ومنصور النمري ، ومسلم بن الوليد وأبو نواس ، واتبع هؤلاء حبيب الطائي ، والوليد البحتري ، وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة إليه) .

وتبعاً لهذا التصنيف نجد ثلاث طبقات في البديع ، أولها بشار وابن هرمة ، والطبقة التالية المقتدية بهما هي طبقة العتابي والنمري ومسلم وأبي نواس . أما الطبقة الثالثة فهي طبقة أبي تمام والبحترى وابن المعتز .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) الموازنة ص ٦ .

(٣) الوساطة ص ٢٥ .

(٤) العمدة جـ ١ ص ١١٩ .

ويكاد يتفق العلماء على أن بشارا هو رأس مدرسة البديع من المحدثين ، وبقية الأسماء تتفاوت درجاتهم فيه من حيث التكلف وعدمه ، والسهولة والوعورة ، والقلة والكثرة .

وأيًّاما كان اختلاف درجات البديع عند الشعراء من بشار حتى ابن المعتز فلا غرو أن مرحلتهم كانت مرحلة ازدهار وتلوين وتنويع وابتكار في ألوان البديع أدت إلى استوائه عِلماً محدد المعالم واضح الهوية ، وما أن انتهت تلك الفترة بعد ابن المعتز حتى بدأ البديع في التدهور ، وأصبح صنعة لا يجيدها إلا قلة من الشعرء ، أما جمهورهم فاتجه نحو التكلف الممقوت ، والتعقيد الشائن ، فذبلت المغاني حين توجهت الهمم إلى الألفاظ ، وكادت الأفكار تنحصر في نظم الألغاز والأحاجي والتلاعب بالألفاظ على حساب المعنى .

ولنأخذ مثالاً لنوع واحد من البديع في شعر فترة بشار حتى ابن المعتز ، وليكن الطباق ، وبقية الأنواع ستأتي شواهدها عند الحديث عن أنواع البديع تفصيلاً .

فمن طباق بشار بن برد أول من فتق البديع ومبتكر (حسن التعليل) قوله :

حَتَّامَ قَلْبِيَ مَشْغُولٌ بِذِكْرِكُمْ ... يَهْذِي وقَلْبُك مربوطٌ بِنِسْيانِي
لَهْفِي عَلَيْهَا ولَهْفي مِنْ تَذَكُّرِها ... يَدْنُو تَذَكُّرُهَا مِنِّي وتَنْآنِي
إنِّي لَمُنْتَظِرٌ أقْصَى الزَّمانِ بِها ... إنْ كانَ أدْناهُ لا يَصْفُو لِحَرَّانِ

فكل بيت يشتمل على مطابقة ، طابق في البيت الأول بين (الذِّكْرِ والنسيان) وفي البيت الثاني بين (الدُّنُوِّ والنَّأْي) وفي الثالث بين (الأقصى والأدنى) . وهذه الكثرة لم نعهدها في الشعر القديم .

ويقول ابن هرمة مطابقاً بين اليُمْنِ والشُّؤْمِ :

وإني لَمَيْمُونٌ جِواراً وإنَّنِي ... إذا زَجَرَ الطَّيْرَ الْعِدا لَمَشْؤُومُ

ويقول العتابي مطابقاً بين الغِنَى والفقر ، وبين الحديث والقديم في بيت واحد :

تَـلُومُ عَلَى تَـرْكِ الْـغِنَـى بـاهِـلِيَّـةٌ   زَوَى الفَقْـرُ عنها كـلَّ طَـرْفٍ وتَـالِـدِ

ويطابق منصور النمري بين الرفعة والضِّعة وهو يمدح الرشيد :

إذا رفَـعْـتَ امْـرَأً فـالله يَـرْفَـعُـهُ   وَمَـنْ وضَعْـتَ مِنَ الأَقْـوام مُـتَّضِـعُ

أما أبو نواس فيقول مطابقاً بين الإيسار والإعسار مرتين في بيت واحد :

كَـمْ مُـوسِـرٍ أَعْـسَـرَ فـي بُـرْهَـةٍ   وَمُـعْـسِـرٍ فـي مِـثْـلِهـا أَيْـسَـرَا

ويقول :

مُـتْ بـداءِ الـصَّـمْـتِ خَـيْـرٌ   لَـكَ مِـنْ داءِ الـكَـلامِ

فهو يطابق بين (الصمت والكلام)

أما مسلم بن الوليد فيطابق بين المدح والهجاء ، وبين الدقة والجلالة ، وبين العزة والذلة في بيتين يهجو فيهما دِعْبِلاً الخزاعيَّ فيقول :

أَمَّـا الْهِجـاءُ فَـدَقَّ عِـرْضُـكَ دُونَـهُ   والْمَـدْحُ عَنْـكَ كمـا عَلِمت جَليـلُ
فـاذهَبْ فـأنتَ طليقُ عِـرْضِـكَ إنَّـهُ   عِـرْضٌ عَـزَزْتَ بـه وأَنْـتَ ذَلـيـلُ

ونأتي إلى مطابقة أبي تمام لنرى فيها العمق والمنطق والفلسفة والعلم مما يتطلب فهمه الإلمام بمدلولات تلك العلوم والرجوع إليها وفهمها ، فَمِمَّا يحتاج فهمُه إلى الإلمام بعلم أصول الدين قوله :

كَمْ في النَّدَى لكَ والمَعْروفِ من بِدَعٍ   إذا تُصُفِّحَتِ اخْتيـرَتْ عـلى السُّـنَنِ

فهو يطابق بين البِدَعِ والسُّنَن .

وقوله :

لن ينـال العُـلا خُصـوصـاً مِنَ الْفِتْـ   ـيـانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ نَـداهُ عُـمُـومَـا

يطابق بين الخُصوصِ والعُموم وذلك من مباحث المنطق .

وقوله :

هَبْ مَنْ لَـه شيءٌ يـريـدُ حجابَـه   مـا بـالُ لا شيءَ عليـهِ حِـجـابُ

فهو يطابق بين الوجود والعدم في قوله (شيء ولا شيء) وهذا من عرف الفلاسفة .

وقوله :

صَاغَهَمْ ذو الْجَلالِ من جَوْهَرِ الْمَجْدِ   وصـــاغَ الأنـــامَ مِـــنْ عَـــرَضِـــه

يطابق بين الجوهر والعَرَضِ وذلك من مباحث علم الكلام لأن الجوهر أثبت من العرض عند المتكلمين .

ومن طباقه قوله :

مِنْ قَـطْعِ أَوْصالِـهِ تَـوْصيـلُ مَهْلَكَتِي   وَوَصْـلِ أَلْحَـاظِـه تَقْـطِيــعُ أَنْفَـاسِي

أما طباق البحتري فهو عذب سائغ يسير ، لا يحتاج إلى تعليل أو تفسير أو رجوعٍ إلى كتب العلماء :

مِـنِّـىَ وَصْــلٌ ومــنــك هَــجْـرُ   وفِـيَّ ذُلٌّ وفــيــك كِــبْــرُ
ومــا ســواءٌ إذا الــتــقــيــنــا   سَــهْــلٌ عــلى خُــلَّةٍ وَوَعرُ
قَــدْ كــنــتُ حُــرًّا وأنْــتَ عَــبْــدٌ   فَــصِــرتُ عَــبْــداً وأنْــتَ حُــرُّ
بَــرَّحَ بــي حــبــك الــمــعــنــى   وغــرَّنــي مِــنْــكَ مــا يَــغُــرُّ
أنــت نَــعِــيــمــي وأنــت بُــؤْســي   وقــد يَــسُــوءُ الَّــذِي يَــسُــرُّ

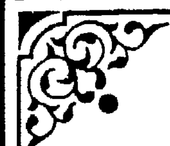
ويقول في وصف بِرْكَةِ المتوكل :

فَحـاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيانـاً يُضَاحِكُهَـا   وَرَيِّـقُ الْغَيْثِ أَحْيـانـاً يُبـاكِـيهـا
ذاكَ وادى الأَراكِ فـاحــبسْ قـليــلاً   مُـقَـصِّــراً مـن صَبَـابَــةٍ أو مُـطِيـلا

وابن المعتز كالبحتري في السلاسة والسهولة فهو يطابق ويقابل حين يقول :

رُبَّ أَمْــرٍ تَــتَّــقِــيــهِ   جَــرَّ أَمْــراً تَــرْتَــجِــيــهِ
خَــفِــىَ الْــمَــحْــبُــوبُ مِــنْــهُ   وَبَــدَا الــمَــكْــروهُ فــيــهِ

فهو يطابق بين (تتقيه وترتجيه) في البيت الأول ، ويقابل بين (خفى المحبوب وبدا المكروه) في البيت الثاني .



الفصل الثالث

أنواع البديع

١ ـ المحسنات المعنوية

٢ ـ المحسنات اللفظية





قسم علماء البلاغة المحسنات البديعية قسمين أساسيين ، أحدهما يتعلق بـالمعنى والآخـر يتعلق بـاللفظ ، وسمى الأول المحسنـات المعنويـة والآخـر المحسنات اللفظية .

وقد عرَّف القزويني علم البديع بأنه (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة)[1] .

وفيما يلي نتناول بالحديث بعض هذه المحسنات البديعية .

أولاً : المحسنات المعنوية :ـ

١ ـ **المطابقة** : وتسمى الطباق والتضاد أيضاً .

وتكون المطابقة إما بلفظين من نوع واحد ، أي أن يكون اللفظان اسمين أو فعلين أو حرفين .

أما المطابقة بين اسمين فهي كقوله تعالى :

﴿ وتَحْسَبُهُمْ أيقاظاً وهُمْ رُقُودٌ ﴾[2] .

فالمطابقة بين (أيقاظ ورقود) .

وكقول الرسول ﷺ : (خير المال عين ساهرة لعين نائمة) .

فالمطابقة هنا بين (ساهرة ونائمة) .

وأما المطابقة بين فعلين فهي كقول زهير بن أبي سلمى :

---

(١) الإيضاح ص ٤٧٧ .

(٢) الكهف ـ بعض الاية ١٨ .

مـا كذَّبَ الليثُ عَنْ أقْـرانِـه صَـدَقَـا ... لَيْثٌ بـعثَّـر يَـصْـطادُ الـرِّجـالَ إذا

فطابق بين الفعلين (كذب وصدق) .

وكقول أبي صخر الهذلي :

أمـاتَ وأحْيَـا والَّـذي أمْـرُهُ الأمْـرُ ... أمَـا والَّـذي أبْكَى وأضْحَـكَ والَّـذي

فطابق بين (أبكى وأضحك) وبين (أمات وأحيا) .

والمطابقة بين حرفين تكون كقوله تعالى :

﴿ لَهَا ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبتْ ﴾[1] .

والجمع بين حرفي الجر (اللام وعلى) مطابقة إذ تتضمن اللام هنا معنى المنفعة ، وتتضمن (عَلَى) معنى المَضَرَّة .

ومن ذلك أيضاً قول مجنون ليلى :

وأخْـلُصَ مـنـه لا عـلـيَّ ولا لِـيَـا ... عَلَى أنَّني راضٍ بـأنْ أحْمِلَ الْهَـوَى

أو تكون المطابقة بين لفظين من نوعين ، أي بين اسم وفعل مثلاً : كقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأَحَيْيْنَاهُ ﴾[2] .

وأنواع المطابقة ثلاثة هي :

١ ـ مطابقة الإيجاب .

٢ ـ مطابقة السلب .

٣ ـ إيهام التضاد .

أما الأول فمثاله ما مر بك من الأمثلة السابقة . والثاني هو :

مطابقة السلب : وهي المطابقة التي يختلف فيها اللفظان إيجاباً وسلباً ، أو كما عرفها القزويني بقوله[3] : (طباق السلب وهو : الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي ، أو أمر ونهي) .

---

(١) البقرة ـ ٢٨٦ .

(٢) الأنعام ـ بعض الآية ١٢٢ .

(٣) الإيضاح ـ ٤٨٠ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلمُون، يعلمونَ ظاهِراً من الحياة الدنيا ﴾[1] .

ومنه قول المتنبي :

ولقد عُرِفتُ ، وما عُرِفْتُ حَقيقَةً ولقد جُهِلْتُ ، وما جُهِلْتُ خمولا

وقول امرىء القيس :

جَزعتُ ولم أجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعاً وعَزَّيْتُ قلبي بالكَواعِبِ مُولَعا

وقول بعضهم يهجو :

خُلِقُوا وما خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ فكأنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ فكأنَّهُمْ رُزِقُوا وما رُزِقُوا

ومثال الأمر والنهي قوله تعالى : ﴿ ولا تَخْشَوا النَّاسَ واخْشَوْنِ ﴾[2] .

٢ - **إيهام التضاد** : وهو أن تتوهم التضاد بين لفظين وهما ليسا متضادين وبعبارة أخرى : هو أن تعبر عن معنيين غير متضادين بلفظين متضادين ، كقول دِعبل بن علي الخُزاعي :

لا تَعْجَبي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرأسِهِ فَبَكَى

فإنَّ (ضحك) هنا من حيث المعنى ليس ضد الكلمة (بكى) ، لأن ضحك المشيب يقصد به ظهور الشيب بوضوح فهو كناية عن كثرة الشيب ، ولكن من حيث اللفظ يوهم بالمطابقة .

ومن ذلك قول أبي تمام:

ما إنْ ترى الأَحْسَابَ بِيضاً وُضَّحا إلَّا بحيثُ تَرَى المنَايَا سُودَا

وقول الشاعر :

يُبْدِي وِشاحاً أبْيَضاً مِنْ سَيْبِهِ والْجَوُّ قد لَبِسَ الوِشاحَ الأَغْبَرَا[3]

---

(١) الروم ٦ ، ٧ .

(٢) المائدة بعض الآية ٤٤ .

(٣) نَوَّنَ الممنوع من التنوين في قوله (أبيضاً) وذلك جائز للضرورة الشعرية .

إن اللفظين (أبيض وأغبر) يوهمان بأنهما متضادان ، وهما ليس كذلك لأن الأبيض ليس ضِدًّا للأغبر .

وقد يكون معنى التضاد ظاهراً مباشرة كما مرَّ من الأمثلة ، أو يكون خفياً غير مباشر . وذلك كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ، فَأُدْخِلُوا ناراً ﴾[1] .

فالمطابقة هنا بين (أغرقوا وأدخلوا نارا) لأن إدخال النار معناه الإحراق ، والإحراق هو ضد الإغراق وليس (أدخلوا النار) .

ومثله ما يلحق الطباق أيضاً كقوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم ﴾[2] .

فإنّ (الرحمة) مسببة عن (اللين) الذي هو ضد الشدة .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ ومِنْ رَحْمَتِهِ جَعلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فيه ، ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ ﴾[3] فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون ، والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة ، والمراد هنا الأولى لا الثانية .

٣ ـ المقابلة : ـ وقد جعلها القزويني من أنواع المطابقة ، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب .

فمثال مقابلة معنيين بمعنيين قوله تعالى :
﴿ فَلْيَضْحَكُوا قليلاً ، وَلْيَبْكُوا كَثيراً ﴾[4] .

وقول النبي ﷺ :

(إنَّ الرفقَ لا يكون في شيءٍ إلا زَانَه ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَه) .

ومنه قول النابغة الذبياني :

---

(١) نوح ـ بعض الآية ٢٥ .
(٢) الفتح ـ بعض الآية ٢٩ .
(٣) القصص ـ بعض الآية ٧٣ .
(٤) التوبة ـ بعض الآية ٨٢ .

فَتىً تَـمَّ فيــه مــا يَـسُــرُّ صَـــدِيقَــهُ   على أَنَّ فيــهِ مـا يَسُـــوءُ الأعــادِيَــا

فالمقابلة في الآية الكريمة بين (يضحكوا قليلا) و(يبكوا كثيراً) .

وفي يالحديث الشريف بين (يكون . . . زانه) و(ينزع . . . شانه) .

وفي بيت النابغة بين (يسر صديقه) و(يسوء الأعاديا) .

ومثال مقابلة ثلاثة معانٍ بثلاثة ، قول المتنبي :

فَـلاَ الْجُودُ يُفْنِي الْمَـالَ والجَدُّ مُقْبِـلٌ   ولا الْبُخْلُ يُبْقِي المالَ والجَدُّ مُدْبِرُ[1]

فالمقابلة هنا بين (الجود - يفني - مقبل) وبين (البخل - يبقى - مدبر) .

ومقابلة أكثر من ثلاثة معان بعددها قوله تعالى :

﴿ فَـأَمَّا مَنْ أَعْـطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بـالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْـرَى ، وأَمَّا من بَخِـلَ واسْتَغْنَى وكذَّبَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾[2] .

ومنها قول المتنبي :

أَزُورُهُـمْ وَسَـــوادُ اللَّيْـــلِ يَشْفَـــعُ لِي   وأَنْثَنِي وبَيَــاضُ الصُّبْـحِ يُغْــرِى بِي

وكلمة الليل هنا لا يقابلها كلمة (الصبح) لأن ضد الليل هو النهار ولكن المقابلة بين الليل والصبح تجوز على مذهب من يجيزون المقابلة بين الأضداد وغير الأضداد . وهناك من لا يجيزون المقابلة إلا بين الأضداد وهذا **رأي السكاكي يقول** : (المقابلة : أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهمـا ، ثم إذا شـرطتَ هنا شـرطاً شـرطتَ هنـاك ضـده كقـولـه تعـالى : **﴿ فـأمـا من أعـطى واتقى** . . . ﴾ حتى آخر الآيتين اللتين سبق ذكرها .

وكل من المطابقة والمقابلة من المحسنات البديعية التي تعطى الكلام نوعاً من القوة والتأثير في النفس ، وتضفي على القول رونقاً وبهاء ، وتوضح المراد من القول ، وتجعل تلاحماً بين الألفاظ وارتباطاً قوياً ، حيث تستدعي المعاني بعضها

---

(٢) الجدُّ بفتح الجيم هو الحظ . ومعنى البيت أن الكرم لا يفني المال إذا كان الحظ مقبلاً والعكس صحيح .

(٢) الليل - الآيات من ٥ - ١٠ .

بعضاً إما استدعاء تشابه أو استدعاء تضاد ، وقد قيل (ويضدها تتميز الأشياء) . ويشترط في نجاح المطابقة والمقابلة أن تكون كل منهما مطبوعة غير متكلفة ولا مُتَصنَّعة حتى لا تفسد المعنى وينفر منها الذوق السليم ، وبالتالي تفقد تأثيرها في السامع أو القارىء ولا ينتج عنها تحسين قول أو معنى .

٤ ـ **مراعاة النظير** : أو التناسب أو الائتلاف أو التوفيق :

وهو أن يجمع بين اثنين في الكلام جمع تناسب لا جمع تضاد كقوله تعالى : ﴿ **الشَّمسُ والقمرُ بِحُسْبان** ﴾[١] .

أو كقول من مدح المهلبى وزير معز الدولة البويهي قائلاً :

(أنت أيها الوزير إسماعيليٌّ الوعدِ ، شُعيبيُّ التوفيقِ ، يوسفيُّ العَفْوِ ، مُحمَّديُّ الخُلُقِ) فإنه راعى في مدحه الوزير أن يجعله مناظراً في كل صفة من الصفات التي مدحه بها الآخر ، أو اشتهر بهذه الصفة ، واستقى هذه الصفات وأصحابها من القرآن الكريم[٢] .

ومن مراعاة النظير أيضاً قول أُسَيْد بن عنقاء الفزارى :

كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في جَبِينِه ... وفي خَدِّه الشِّعْرَى، وفي وَجْهِهِ الْبَدْرُ

وقول ابن خفاجة الأندلسي في وصف الفرس :

من جُلَّنارٍ ناضِرٍ خَدُّه ... وأُذْنُه مِنْ وَرَقِ الآسِ

فالمناسبة هنا بين الجلنار والآس والنضارة .

وقولُ ابن رشيق في مدح الأمير تميم أمير صنهاجة بافريقية :

أَصَحُّ وأَقْوَى ما سَمِعْنَاه في النَّدَى ... من الْخَبَرِ المَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيم

أَحَادِيثُ تَرْويها السُّيولُ عن الْحَيَا ... عَنْ الْبَحْرِ، عَنْ كَفِّ الأميرِ تَمِيمِ

---

(١) الرحمن آية ٥ ـ والحسبان هو الحساب المعلوم ، والتقدير المحكم الدقيق .

(٢) في صدق إسماعيل انظر سورة مريم : ٥٤ ـ ٥٥ ، وفي توفيق شعيب . سورة هود : ٨٨ وفي عفو يوسف سورة يوسف : ٩٢ . وفي سمو خلق محمد عليه الصلاة والسلام سورة القلم : ٤ .

فإنه ناسب فيه بين الصحة ، والقوة ، والسماع ، والخبر المأثور ، والأحاديث ، والرواية ، ثم بين السيل ، والحيا ، والبحر ، وكف تميم ، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العنعنة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر ، كما يقع في سند الأحاديث ، فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر على ما يقال ، ولهذا جعل كفَّ الممدوح أصلاً للبحر مبالغة .

وتشابه الأطراف : من أنواع مراعاة النظير عند بعض العلماء . وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى وذلك كقوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ، وهو يُدْرِكُ الأَبْصارَ ، وهو اللَّطيفُ الخبير** ﴾[1] فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً ، فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به .

وقوله تعالى : ﴿ **له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، وإن الله لَهُو الغنيُّ الحميد** ﴾[2] قال : ﴿ **الغني الحميد** ﴾ لينبه على أن ماله ليس لحاجة ، بل هو غني عنه ، جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

وإيهام التناسب : أيضاً من أنواع مراعاة النظير

وهو ان تجمع بين لفظين غير متناسبين ، بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وان لم يكونا مقصودين ، ولذلك يلحق بمراعاة النظير .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **الشَّمْسُ والقَمَرُ بحسبانٍ ، والنَّجْمُ والشَّجَرُ يسجدان** ﴾[3] فقوله تعالى ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ أي بحساب معلوم وتقدير دقيق محكم ، وقوله تعالى ﴿ **والنجم والشجر يسجدان** ﴾ هو أن النجم هنا ليس نجم السماء ، بل هو النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول والشجر الذي لا ساق له ، ويسجدان أي ينقادان لله فيما خلقا له . فالنجم بمعنى النبات ، وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر ، فقد يكون بمعنى الكواكب وهو مناسب لهما ، ولهذا سُمِّي إيهام التناسب .

---

(١) الأنعام - ١٠٣ .

(٢) الحج - ٦٤ .

(٣) الرحمن - ٥ .

٥ ـ التَّفْويف : ـ

ويقول عنه صاحب الطراز : (وهو في علم البديع في الذروة العليا . . . واشتقاقه من قولهم : بُرْدٌ مُفَوَّفٌ ، وهو الـذي يكون على لـون ثم يخالـطه لون أبيض)[١] .

والتفويف هو أن يؤتى في الكلام بمعان متلائمة في جمل مستوية المقادير أو متقاربتها ، ويكون التفويف حَسَناً إذا كان خالياً من الركاكة التي تؤدي إلى ثقل النطق .

ومنه قول ابن زيدون :

تِهْ أَحْتَمِلْ ، واحْتَكِمْ أَصْبِرْ ، وعِزَّ أَهُنْ　　ودِلَّ أَخْضَعْ ، وقُلْ أَسْمَعْ ، ومُرْ أُطِعِ [٢]

ويكون التفويف إما بالجمـل المتوسـطة كما في بيت ابن زيـدون ، وإما بـالجمل الـطويلة وهو قليـل ، وإما بـالجمل القصيـرة وهو الأكثـر ولا يخلو من تعسف .

ومنه قول المتنبي لسيف الدولة يسأله بعض الحاجات ، وقد اشتمل بيت المتنبي على أربعة عشر فعل أمر :

أَقِلْ أَنِلْ اقْـطَعْ احْمِلْ عَـلِّ سَلِّ أَعِـدْ　　زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ ادْنُ سُرَّ صِلِ [٣]

ومنه قول ديك الجن الشاعر المتوفي سنة ٢٣٥ هـ .

احْلُ ،وامْرُرْ، وضُرَّ وانْفَعْ ،ولِنْ، وأخشُن　　ورِشْ ، وابْـرِ، وانْتَـدِبْ للْمَعَـالى

فبعض البيت كما ترى من مراعاة النظير وبعضه من المطابقة[٤] .

(١) الطراز للعلوي ص ٨٤ .

(٢) البيت في الغزل . ته : الأمر من تاه يتيه بجماله ، دل : فعل أمر من دل يدل دلالا وهو يقول في البيت لمحبوبته : سأحتمل تيهك وأصبر على تحكمك ، وأهون أمام اعتزازك بنفسك وأخضع لدلالك ، وأسمع قولك ، وأطيع أمرك .

(٣) فهو يطلب من سيف الدولة أن يقيل عثرته ، ويشمله بنواله ، ويعطيه فرسا للحمل ، وأن يعليه ويسليه بعطايا ، ويعيد ذلك ويزيد له العطاء وأن يقابله هاشّا باشّا وأن يتفضل عليه ويدنيه منه ، ويسره ويصله .

(٤) يقول : كُنْ حُلْواً ومُراً ، وضرني وانفعني ، وكن لينا وخشنا ، ورش وابر كناية عن القوة اذا راش السهم وبراه أى استعد للقتال ، وانتدبني للمعالي .

وكقول بعضهم يصف السحاب :

تَسَرْبَلَ وَشْياً من خُزُوزٍ تَطَرَّزَتْ مَطَارِفُهَا طُرْزاً منَ الْبَرْقِ كالتِّبْرِ
فَوَشْيٌ بِلا رَقْمٍ ، ونَقْشٌ بِلا يَدٍ ودَمْعٌ بِلا عَيْنٍ، وضِحْكٌ بِلا ثَغْرِ

والبيت الثاني مثال للتفويف الذي يخلو من التكلف والتعسّف ، كما في بيت ديك الجن وبيت المتنبي .

ومما يخلو أيضاً من التكلف والتعسف قول عنترة :

إنْ يَلْحَقُوا أَكْرُرْ، وإنْ يَسْتَلْحِقُوا أَشْدُدْ، وإنْ نَزَلُوا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ

٦ - الاستطراد : -

وهو ذكر الشيء في غير محله لمناسبة ، وذلك بأن يخرج المتكلم من الكلام الذي هو مسترسل فيه إلى غيره باستدعاء مناسبة ، ثم يرجع إلى ما كان فيه .

وبعبارة أخرى هو : الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني .

ومثال ذلك قول السموءل بن عادياء اليهودي :

وإنَّا أُنَاسٌ لاَ نَرَى الْمَوْتَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجالَنَا لَنَا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ
ومَا مَاتَ مِنَّا واحِدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولاَ طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

فسياق القصيدة للفخر ، وتنسيق مآثر المجد ، واستطرد منه الشاعر إلى هجاء عامر وسلول ، ثم عاد لغرضه الأصلي .

ومنه قول عبد المطلب على ما قاله النابلسي في بديعيته :

لنا نفوسٌ لِنَيْلِ المجدِ عاشِقَةٌ فَإنْ تَسَلَّتْ أَسَلْنَاهَا على الأَسَلِ
لا يَنْزِلُ المَجْدُ إلاَّ في مَنَازِلِنَا كالنَّوْمِ لَيْسَ له مَأْوَى سِوَى المُقَلِ

فسياق الكلام هنا في الفخر ، واستطرد منه إلى ذكر النوم الذي ليس له مأوى إلا في المقل .

٧ - الاطِّراد : -

وهو غير الاستطراد ، وقد عَرَّفه صاحب الطراز بقوله : (. . . فإنه ذكر اسم الممدوح بعينه ليزداد إبانةً وتوضيحاً على ترتيب صحيح ونسق مستقيم من غير تكلف في النظم ، ولا تعسف في السبك ، حتى يكون ذكر الاسم في سهولته كاطّراد الماء وسهولة جريه وسيلانه)[١] .

ويستحسن أن يذكر اسم المقصود واسم من أمكن من آبائه على الترتيب .

وذلك كقول الأعشى :

أقَيْسُ بْنُ مَسْعودِ بْنِ قيسِ بْنِ خَالِدٍ وأَنْتَ امْرُؤٌ يَرْجُو شَبَابَكَ وائِلُ

وقال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة :

قَتَلْنَا بِعَبْدِ اللهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُؤَابَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنِ زيدِ بْنِ قَارِبِ

وقولُ آخَرَ :

مَنْ يَكُنْ رامَ حَاجَةً بَعُدَتْ عَنْـ ـهُ وأَعْيَتْ عَلَيْهِ كُلَّ العَيَاءِ
فَلَهَا أَحْمَدُ الْمُرَجَّى ابنُ يَحْيَى بْنِ مُعَاذِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ رَجَاءِ

ويقول صاحب الطراز : (فأما ذكر الأمهات والجدات فليس محمودا عند البلغاء وأهل العلم بالمدائح الشعرية لما فيه من الركة ، وإنزال قدر الممدوح ، وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد ذكره لأُمِّهِ)[٢] .

يقول أبو نواس في مدح الأمين :

أَصْبَحْتَ يَا بْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ أَمَلاً لِعَقْدِ حِبَالِهِ اسْتِحْكَامُ

وعيب على أبي نواس أيضاً قوله :

ولَيْسَ كَجَدَّتَيْهِ : أمِّ مُوسَى إذا نُسِبَتْ ولا كَالْخَيْزُرانِ

وكان هذا مكروها ، لأن شرف الرجال يكون بالرجال .

---

(١) الطراز ص ٩٣ .

(٢) نفسه ص ٩٤ .

٨ - التَّوْرِيَة : -

وتسمى أيضاً الإيهام والتوجيه والتخيير[١] ، والتورية أفضل في التسمية وأولى ، لأنك تقول : وَرَّيْتُ الخَبَرَ : أي جعلتُه ورائي وسترتُه وأظهرتُ غيرَه ، لذلك كان معنى التورية في البديع . هو أن يُذْكَرَ لفظٌ له معنيان ، معنى قريب ومعنى بعيد ، ويكون المعنى المقصود هو البعيد اعتماداً على قرينة خَفِيَّة .

وقد قسّمها بعض البلاغيين إلى أربعة أنواع هي : مجردة ، ومرشَّحة ، ومُبَيَّنَة ، ومهيأة .

ولكنا نكتفي بتقسيم القزويني لها إلى قسمين هما : مجردة ، ومرشحة .

أما المجردة ، فهي التي لا يُذكر فيها شيء من لوازم المُوَرَّى به وهو المعنى القريب ، ولا من لوازم المُوَرَّى عنه وهو المعنى البعيد .

وخير مثال للتورية المجردة قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوى** ﴾[٢] فالتورية هنا في كلمة ﴿ **استوى** ﴾ والاستواء على معنيين : أحدهما الاستقرار في المكان ، وهو المعنى القريب المورَّى به غير المقصود ، والثاني هو الاستيلاء والمُلْكُ ، وهو المعنى البعيد المورَّى عنه ، وهو المقصود لأن الرحمن سبحانه مُنَزَّهٌ عن المعنى الأول . ولم يُذكر من لوازم هذا أو ذاك شيء .

ومن التورية قول أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة وقد سئل عن النبي ﷺ مَنْ هذا ، فقال : (هادٍ يهديني) ، فالمعنى القريب هنا هو أنه دليلي في السفر يهديني إلى الطريق ، والمعنى البعيد الذي يقصده أبو بكر هو : أن رسول الله ﷺ هاديه إلى الإسلام والحق .

ومن التورية المجردة أيضاً قول النبي عليه الصلاة والسلام في خروجه إلى بدر ، وقد سُئِلَ : مِمَّنْ أنتم ؟ فلم يُرِدْ أن يعلم السائل ، فقال : (مِنْ ماء) ،

---

(١) انظر تعريفات التورية عند البلاغيين في كتاب (خزانة الأدب) لابن حجة الحموري ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٢) طه - ٥ .

وأراد : أنَّا مخلوقون من ماء . فَوَرَّى عن هذا المعنى البعيد بمعنى قريب هو قبيلة من قبائل العرب كانت تسمى (ماء) .

فالنوال هنا نوع واحد ، غير أنه فَرَّقَ بين نوال الأمير الكثير الثمين ونوال الغمام الذي هو قطرة من الماء .

كَأَنَّ نِيسَانَ أَهْدَى مِنْ مَلابِسِهِ لِشَهْرِ كانونَ أنواعاً مِنَ الْحُلَلِ
أَوِ الْغَزَالة من طُولِ الْمَدَى خَرِفَتْ فَما تُفَرِّقُ بين الْجَدْى والْحَمَلِ

فالتورية هنا في كلمة (الغزالة) وكلمة (الجدى) وكلمة (الحَمَل) والمعنى القريب لهذه الكلمات هو معناها الحقيقي كحيوانات ، أمَّا المعنى البعيد فهو الشمس للغزالة ـ والغزالة من أسماء الشمس ـ والجدى والحَمَل بُرْجانِ من الأبراج الفلكية ، فالمعنى البعيد إذن هو الشمس وبرج الجدي وبرج الحَمَل[1] .

أما التورية المرشَّحة فهي التي يقترن بها ـ قبلها أو بعدها ـ ما يلائم المورّى به ، أي أن لفظ التورية يأتي قبله أو بعده شيء من لوازمه يرشحه للمعنى القريب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللفظ الملائم قبل لفظ التورية ، قوله تعالى : ﴿ **والسَّماءَ بَنَيْنَاها بأَيْدٍ ، وإنَّا لَموسِعُونَ** ﴾[2] .

فإن لفظ (بأيد) يحتمل الأيدي الحقيقية وهذا هو المعنى القريب الذي رشح له قبله لفظ (بنيناها) . ويحتمل لفظ (أيد) معنى آخرَ أبعد وهو القوة وعظمة الخالق ، وهو المعنى المراد ، لأن الله سبحانه مُنَزَّهٌ عن المعنى الأول .

ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر الحماسي يحيى بن منصور :

فَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنَخْنَا ، فَحَالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ
فما أَسْلَمَتْنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ولاَ نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ على وِتْرِ

(١) اعتبر القزويني هذا المثال من أمثلة التورية المرشَّحة التي قُرِنَ بها ما يلائم المورَّى به وجاء الملائم هنا بعد التورية وهو الجدى والحَمَل ، (الإيضاح ص ٥٠٠ ـ ٥٠١) ولكن الجدى والحَمَل هنا ليسا من لوازم الغزالة الوحشية .

(٢) الذاريات ـ ٤٧ .

فكلمة (الجفون) في البيت الثاني ، سبقتها كلمة (أغضينا) وهي لازمة رشحت (الجفون) للمعنى الحقيقي وهو جفون العين التي يُعتبر الإغضاء من لوازمها ، ولكن الشاعر يقصد المعنى البعيد وهو جفون السيوف ، أي أغمادها التي توضع فيها حال عدم استعمالها . فالشاعر يريد أن يقول (إننا لا نغمد سيوفنا ونحن موتورون) .

ومن هذا النوع أيضاً قول الشاب الظريف[1] :

تَبَسَّمَ ثَغْرُ اللَّوْزِ عن طِيبِ نَشْرِه   وأَقْبَلَ في حُسْنٍ يَجِلُّ عن الْوَصْفِ
هَلُمُّوا إليه بَيْنَ قَصْفٍ ولَذَّةٍ   فإِنَّ غُصُونَ الزَّهْرِ تَصْلُحُ لِلْقَصْفِ

فإن كلمة (القصف) في آخر البيت الثاني تحتمل معنيين ، معنى قريب وهو الكسر وقد سبقه ما يناسب هذا المعنى وهو (غصون الزهر) .

ومعنى بعيد للقصف وهو اللعب واللهو ، وذلك هو المعنى الذي أراده الشاعر .

وأما النوع الثاني من التورية المرشَّحة ، وهو أن يتأخر فيه اللفظ المرشح الملائم للفظ التورية فيأتي بعده . فإنّ من أمثلته قول الشاعر :

مُذْ هِمْتُ مِنْ وَجْدِيَ في خَالِهَا   ولَمْ أَصِلْ منه إلى اللَّثْمِ
قالتْ : قِفُوا واسْتَمِعُوا ما جَرَى   خَالِي قَدْ هَامَ بِهِ عَمِّي[2]

فكلمة (خالي) في البيت الثاني جاءت بعدها كلمة (عَمِّي) فرشحَت الخال للمعنى القريب وهو أخو الأم ، ولكن الشاعر أراد المعنى البعيد للخال وهو النقطة السوداء في الوجه علامة للحسن .

والتورية بوجه عام ، بكونها لوناً من ألوان علم البديع ، اعتبرها بعض علماء البلاغة أكثر فنون القول دقة ولطفاً ، وليس أنفع منها ولا أعون على تعاطي تأويل

---

(١) هو شمس الدين بن العفيف التلمساني المتوفي سنة ٦٨٧ هـ .

(٢) الخال : هو أخو الأم ، أو هو نقطة سوداء في الجسد وتكون غالباً في الخد وهو من علامات الحسن وقد كثر ذكر الخال في الشعر العربي علامة للحسن .

المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه ﷺ وكلام الصحابة بما مر من أمثلة لذلك .

وقيل إن أول من كشف غطاء التورية وأضاءها هو أبو الطيب المتنبي بقوله :

بِـرَغْمِ شَبيبٍ فَـارقَ السَّيْـفُ كَفَّـهُ وكـانَـا على العِـلاَّتِ يَصْـطَحِبـانِ
كـأنَّ رِقـابَ النَّـاسِ قـالتْ لِسَيْفِـهِ رَفـيـقُـكَ قَيْسيٌّ وأنْتَ يَـمـانِـي

أرادَ أنَّ كَفَّ (شبيبٍ) وسيفَه لا يجتمعان ، لأن شبيبا هذا كان قيسيا ، والسيف الجيد يوصف بأنه يماني نسبة إلى اليمن ومعروف ما كان بين قيس ويمن من تنافر وخصومة .

وكانت التورية تقع عند القدماء دون قصد أو تعمد ، ولكن المتأخرين أول من تنبهوا إليها وتعمقوا فيها وأنزلوها من البديع أرفع المنازل فشاعت وذاعت في أدب المتأخرين وشعراء القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، وقد تأثر كثيرون من شعراء مصر بما هيأه القاضي الفاضل (المتوفي سنة ٥٩٦) لهم من استعمال التورية في نثره ونظمه ، فاحتذاه وزاد عليه كثير ممن أتوا بعده من شعراء مصر كابن سناء الملك ، والسراج ، والجزار ، والوراق والحماص وابن دانيال ، ومحي الدين بن عبد الظاهر ، وابن نُباتة ، والصَّفدي وغيرهم . وفي الشام أمثال شرف الدين الأنصاري ومجير الدين ابن تميم ، وبدر الدين يوسف الذهبي ، ومحي الدين الحموي وعلاء الدين الكندي وغيرهم .

وبلغ من شدة اهتمام ابن حجة الحموي بالتورية أنه خصص لها ولشعرائها ما يقرب من ربع كتابه (خزانة الأدب) ، وأنه كان ينوي إفراد كتاب خاص بالتورية والاستخدام يسميه (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام)[1] .

ومن لطيف التورية قول الشيخ عز الدين الموصلي :

لَـحَـظْتُ مِـنْ وَجْـنَـتِـهَـا شَـامَـةً فَـابْـتَسَـمَتْ تَـعْـجَـبُ مِـنْ خَـالِـي
قَـالتْ قِفُـوا واسْتَمِعـوا مـا جَـرَى قَـدْ هَـامَ عمِّي الشيـخُ مِنْ خَـالِي

وقول سراج الدين الوراق :

(١) خزانة الأدب ص ٢٧٧ .

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أُنَاسٍ لِقَاءُ الْمَوتِ عِنْدَهُمُ الأَدِيبُ
وَرَبُّ الشِّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ[1]

وقول نصير الدين الحمّامي :

أَبْيَاتُ شِعْرِكَ كَالْقُصُو رِ ولا قُصُورَ بِهَا يَعُوقْ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ لَفْظُهَا حُرٌّ وَمَعْنَاهَا رَقِيقْ

وقول بدر الدين الذهبي :

يَا عَاذِلِي فِيهِ قُلْ لِي إِذَا بَدَا كَيْفَ أَسْلُو
يَمُرُّ بِي فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلَّمَا مَرَّ يَحْلُو

وقوله أيضاً :

رِفْقاً بِخِلٍّ نَاصِحٍ أَبْلَيْتَهُ صَدًّا وهَجْرَا
وافَاكَ سَائِلُ دَمْعِهِ فَرَدَدْتَهُ فِي الْحَالِ نَهْرَا

وقول ابن نباتة المصري :

والنَّهْرُ يُشْبِهُ مِبْرَداً فَلأَجْلِ ذَا يَجْلُو الصَّدَى

ويقول أبو الحسين الجزار :

كَيْفَ لا أَشْكُرُ الْجِزَارَةَ مَا عِشْتُ حِفَاظاً وأَهْجُرُ الآدابَا
وَبِهَا صَارَت الْكِلابُ تُرَجِّينِي وَبِالشِّعْرِ كُنْتُ أَرْجُو الْكِلابَا

ويقول صلاح الدين الصفدي :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ قَدْرَ كَ قَدْ عَلا عِنْدِي وعَزَّا
مَاتَ السُّلُوُّ، تَعِيشُ أَنْتَ أَمَا رَأَيْتَ الصَّبْرَ عَزَّا

ويقول ابن النقيب :

أقولُ وقَدْ شَنُّوا إلى الْحَرْبِ غَارةً دَعُونِي فَإِنِّي آكُلُ الْخُبْزَ بِالْجُبْنِ

ويقول الشاب الظريف :

قَامتْ حُروبُ الدَّهْرِ مَا بَيْنَ الرِّيَاضِ السُّنْدُسِيَّةْ

---

(١) بغيض : شاعر جاهلي ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .

وأَتَــتْ بــأَجْمَــعِـهَــا لِـتَـغْـ ـزُوَ رَوْضَــةَ الْــوَرْدِ الْـجَـنِـيَّــةْ
لــكـنـهـا انْـكَـسَــرَتْ لأنَّ الْــوَرْدَ شَــوْكَــتُــه قَــوِيَّــةْ[1]

٩ ـ المبالغة : ـ

وهي الزيادة في الوصف بدرجات متفاوتة ، تبدأ من درجة المعقول الممكن حتى درجة اللامعقول المستحيل . لذلك اختلف الناس فيها ما بين مُسْتَحْسِنٍ ومُسْتَهْجِن ، ومنهم من قسمها درجات تبدأ بالتبليغ ثم الإغراق ثم الغُلُوّ وأضافوا إلى ذلك ما عرف بالإيغال . واعتبر المتأخرون كل درجة من درجات المبالغة فناً بديعياً مستقلاً .

والمبالغة عند ابن المعتز هي (الإفراط في الصفة) وهذا الإفراط إما مقبول وإما مرذول لخروجه عن الحد المقبول ، ويعتبر ابن المعتز أول من تناول هذا الفن البديعي بالتعريف في كتابه (البديع)[2] وسماه الإفراط في الصفة ، أما أول من أعطى هذا النوع اسم (المبالغة) فهو قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)[3] حين تحدث عن الإفراط في الصفة عند ابن المعتز واعتبرها من نعوت المعاني . ثم جاء بعده أبو هلال العسكري فقال : (المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه)[4] ثم يذكر نوعاً آخر من المبالغة فيقول:(ومن المبالغة نوع آخر ، وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أَجْزَأَتْهُ في غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكده ، ويُلحق به لاحقة تؤيده)[5] .

ثم يأتي ابن رشيق القيرواني ، فيشير في عمدته إلى تعدد ضروب المبالغة ، ويعرض لآراء بعض حذاق النقد في المبالغة ، يقول : (وهي ضروب كثيرة . والناس فيها مختلفون : منهم من يؤْثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية

(١) الورد : اسم من أسماء الأسد . والشوكة : السلاح .
(٢) ص ٥٨ ـ ٦٦ .
(٣) ص ١٠١ ـ ١٠٣ .
(٤) كتاب الصناعتين ص ٣٦٥ .
(٥) السابق ص ٣٦٦ .

القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من اسْتُجِيدَ كذبُه وضُحِكَ من رديئه ، هكذا أعرفه) ثم يقول : (. . . ومنهم من يعيبها وينكرها ، ويراها عيباً وهجنة في الكلام) .

ثم يعرض ابن رشيق رأى بعض حذاق النقد فيقول : (. . . قال بعض الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أحالت المعنى ولَبَّسَتْه على السامع فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ، لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضاً الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ، فإن العرب إنما فُضِّلت بالبيان والفصاحة ، وحَلَا منطقها في الصدور ، وقَبِلَتْه النفوس لأساليب حسنة ، وإشارات لطيفة ، تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، قد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها ، وبالتشكك في الشبهين)[1] .

ثم يضرب مثلاً لذلك بقول ذي الرمة :

فَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْساءِ بينَ جُلاجِلٍ ... وبَيْنَ النَّقَا آ أنتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ

فلو أنه قال : (أنتِ أُمُّ سالم) على نفي الشك ، بل لو قال (أنا أحسن من الظبية) لَمَا حَلَّ من القلوب محل التشكك .

وكما قال جرير :

فإنَّكَ لو رأيْتَ عَبيدَ تَيْمٍ ... وتَيْماً قُلْتَ : أَيُّهُمُ الْعَبِيدُ

فلو أنه قال : (عبيدهم) أو (خير منهم) لما ظُن به الصدق ، فاحتال في تقريب المشابهة ، لأن في قربها لطافة تقع في القلوب ، وتدعو إلى التصديق .

وكذلك قول أبي النجم يصف عَرَق الخيل :

---

(١) كتاب العمدة جـ٢ ص٥٣ .

كـأَنَّـه مِـنْ عَـرَقٍ يُـسَـرْبِـلُهُ   كَكُـرْسُفِ النَّـدَّافِ لَـوْلاَ بَـلَلُهْ[1]

فانه لو قال (إنه الكُرْسُفُ) لم يكن في حسن هذا ، لانه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع في الشك . . . والمبالغة في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام)[2] .

والقزويني في تعريفه للمبالغة يقول[3] :

(والمبالغة : أن يُدَّعَى لوصفٍ بلوغُه في الشدة أو الضعف حَدًّا مستحيلاً أو مُسْتَبْعَداً ، لئِلا يُظَنَّ أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف . وتنحصر (المبالغة) في التبليغ ، والإغراق ، والغُلُوِّ ، لأن الْمَدْعِيَّ للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكناً في نفسه ، أوْلا : الثاني الغلوُّ ، والأول إما إن يكون ممكناً في العادة أيضاً ، أوْلا : الأول التبليغ ، والثاني الإغراق)[4]

وأما أنواع المبالغة فهي : ـ

أ ـ التبليغ : ـ

وهو أول درجات المبالغة ، وهو عند السكاكي أن يكون الوصف المُدَّعى ممكناً عقلاً وعادة ، أي أنه يقبله العقل ، ويمكن حدوثه في الواقع ، وذلك كقول امرىء القيس واصفاً فرسه :

فَعَـادَى عِـداءً بَيْـنَ ثـورٍ ونَعْـجَـةٍ   دِراكـاً فلَمْ يَنْضَـحْ بمـاءٍ فَيُغْسَـلِ[5]

يصف امرؤ القيس فرسه بالقوة إذْ استطاع في جولة واحدة أن يدرك ثـوراً

---

(١) الكُرسُف : القطن وهو الكُرْسُوف أيضاً ، وواحدته كُرْسُفَه . والنداف : هو الذي يضرب القطن بالمندف .

(٢) انظر كتاب العمدة جـ٢ ص ٥٤ .

(٣) الإيضاح ص ٥١٤ .

(١) وهذا رأى السكاكي أيضاً .

عادَى بين الصيدين : صرع أحدهما إثر الآخر في طلق واحد ، نعجة : بقرة وحشية . دراكا : متتابعاً . لم ينضح : لم يرشح .

ونعجة ويقتل كلا منهما بعد الآخر دون أن يبتل بالعرق وذلك لمهارة الفرس وسلامته .

فالمبالغة هنا أو (التبليغ) أمر ممكن عقلاً وعادة .

ومن ذلك أيضاً قول أبي الطيب المتنبي في وصف فرسه :

وأَصْرَعُ أيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُه بِهِ   وأَنْزِلُ عنه مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

معنى بيت المتنبي هو تقريباً معنى بيت امرىء القيس ، إذْ يقول المتنبي : إنني أصرع أي وحش بفرسي حين أجعله يقفوه أي يتتبعه ، وبعد جولة الصيد أنزل من فوق الفرس وهو غير مرهق بل يكون حاله بعد نزولي كحاله حين ركبته . وهذا أيضاً ممكن عقلاً وعادة .

ب ـ الإغراق : ـ

وهو الدرجة الثانية من المبالغة بعد التبليغ ، وقد عَرَّفه السكاكي ومن نحا نحوه ، بأنه ممكن عقلاً وغير ممكن عادة .

وذلك كقول عمرو بن الأهتم التغلبي :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا   ونُتْبِعُهُ الكَرامَةَ حيثُ مَا لا

فالشاعر يفخر بأن قومه يكرمون جارهم طول إقامته معهم في جوارهم ، وإن إكرامَهم للجار لا ينقطع حتى بعد أن يميل عنهم ويفارقهم إلى أي مكان آخر .

فهذا الأمر ممكن عقلاً ، أي لا يستحيل عقلاً ، ولكنه في العادة لا يحدث أن يلاحق قوم جارهم بعطاياهم أينما حل وحيثما اتجه . ولكن مقام الفخر هنا جعل الشاعر يُغرق في المبالغة ما أمكن ذلك ليكون كرمه أظهر وأعرف ، أو كما قال ابن رشيق عن صاحب هذا البيت بأنه (تَقَصَّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه)[1] .

جـ ـ الغُلوّ : ـ

وهو امتناع إمكان حدوث الوصف المُدَّعى عقلاً وعادة وذلك كقول أبي

---

(١) العمدة جـ٢ ص ٥٥ .

نواس في المدح :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتى أنه لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لَمْ تُخْلَقِ[1]

فالغلوّ هنا في أنه أسند الخوف إلى النطف التي لم تخلق بعد ، وهذا أمر لا يمكن حدوثه في العادة ، ولا يمكن للعقل أن يسلم به ، فالوصف هنا يمتنع إمكانه عقلاً وعادة .

المقبول من الغلوّ :

جعل بعض البلاغيين شروطاً للغلوّ المقبول ، ومنهم السكاكي والقزويني ، يقول القزويني[2] : (والمقبول منه أصناف : أحدها : ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة ، نحو لفظة (يكاد) في قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُها يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾[3] وأن يضيىء الزيت دون أن تمسه نار ، أمر محال عقلاً ، ولكن دخول (يكاد) ينبىء أن المحال لم يقع ولكن قارب الوقوع .

ومنه قول ابن حمد يس الصِّقِلِّي يصف سرعة فرسه :

ويَكَادُ يَخْرجُ سُرْعَةً عنْ ظِلِّهِ لَوْ كانَ يَرْغَبُ في فِراقِ رَفيقِ[4]

والنوع الثاني من الغلو المقبول هو ما تضمن نوعا حسناً من التخييل ، وذلك كقول أبي الطيب المتنبي يمدح ابن عمار :

أقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجيادُ عَوَايسٌ يَخْبُبْنَ بالْحَلَقِ المُضَاعَفِ والْقَنا
عَقَدَتْ سَنَابِكُها عليْهَا عِثْيَراً لو تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْهِ لأمْكَنا[5]

فالشاعر هنا يتخيل أن التراب الكثيف الذي أثارته سنابك الخيل وتجمع فوق رؤوسها صار أرضاً يمكن السير فوقها . ورغم أن هذا يمتنع حدوثه عقلاً وعادة ، إلا أنه تَخَيُّلٌ حسن ومقبول .

---

(١) النطف : جمع نطفة وهي ماء الرجل قبل أن يتخلق في الرحم .

(٢) الإيضاح ص ٥١٥ .

(٣) النور ـ بعض الآية ٣٥ .

(٤) سرعة : مفعول لأجله .

(٥) سنابك الخيل : أطراف حوافرها ومفردها سنبك . عثيرا : غبارا . عنقا : سيرا سريعاً .

وقد يجتمع حسن التخييل ، وإدخال ما يقرِّبُ الغُلُوَّ من الصحة ، وجمع بينهما القاضي الأرَّجاني في وصف الليل بالطول فقال :

يُخَيَّلُ لي أَنْ سُمِّر الشُّهْبُ في الدُّجى   وشُـدَّتْ بـأَهْـدابي إلَيْهِنَّ أَجْفَـانِي

يقول : يخيل لي من طول الليل أن الشهب مثبتة بالمسامير في الظلام ، فهي تلازمه ، وأن أجفان عيني قد شُدَّتْ بأهدابها إلى الشهب ، فَعَزَّ النوم في ذلك الليل .

أما الصنف الثالث الذي ذكره القزويني للغُلُوِّ المقبول فهـو : (ما أُخْـرِجَ مخرج الهزل والخلاعة كقول الشاعر[1] :

أَسْكَرُ بالأَمْسِ إن عَـزَمْتُ على الشُّرْ   بِ غَـداً إنَّ ذا مـن الـعـجـب

ثم يضرب ابن رشيق مثلاً بقول زهير بن أبي سلمى [4]:

لَوْ كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَـرَمٍ   قَـوْمٌ بـأَحْسَـابِهِمْ أو مَجْـدِهِمْ قَعَـدُوا

فبلغ ما أراد من الإفراط ، وبنى كلامه على صحة . وذلك بأن قعودهم فوق الشمس امتنع باستخدام (لو) .

وقول أبي صخر :

تَكَـادُ يَـدِي تَنْـدَى إذا مـا لَمَسْتُهَـا   ويَنْبُتُ في أَطْـرافِهـا الْـوَرَقُ النَّضْـرُ

ومـا استحسنه الـرواة ، ونَصَّ عليه العلمـاء ، قول امـرىء القيس يصف سِنانا :

حَـمَـلْتُ رُدَيْـنِيـاً كـأَنَّ شَـبَـاتَـهُ   سَنَـا لَهَـبٍ لَمْ يَـتَّـصِـلْ بِـدُخَـانِ

ومن الغلو المقبول لأنه دخلت عليه أداة تقربه من الصحة ، قول المتنبي :

لَـوْ كـانَ ذُو الْقَـرْنَيْنِ أَعْمَـلَ رَأْيَـهُ   لَمَّـا أَتَى الـظُّلُمَـاتِ صِـرْنَ شُمُـوسَـا

---

(١) الإيضاح ص ٥١٦ .

(٢) العمدة ص ٦٣ .

(٣) سيأتي ذكر بعض هذه الأبيات .

(٤) العمدة ص ٦٤ .

أَوْ كَـانَ صَـادَفَ رَأْسَ عـازِرَ سَيْفُـهُ   فِي يَـوْمِ مَعْـرَكَـةٍ لأَعْيَـا عِيسَى
أَوْ كَـانَ لُـجُّ الْبَحْـرِ مثـلَ يَمِينِـهِ   مـا انْشَقَّ حَتَّى جَـازَ فيـه مُـوسَى

وقـول ابن الفارض في وصف ما وصل إليه من نحول ودقة وذوبان في تصوفه :

كَـأَنِّي هِـلالُ الشَّـكِّ لَـوْلا تَـأَوُّهِي   خَفِيتُ فَلَمْ تُهْـدَ الْعُيُـونُ لِـرُؤْيَتِي

أي أنه كاد من شدة نحوله ألا تراه العين ، أو أن العين تبدى تشككها في وجوده أو عدم وجوده كأنه هلال يوم الشك . ولولا آهاته ما اهتدى إليه أحـد . ويقول أبو العلاء المعري مستخدماً (لولا) أداة تقريب :

يُـذِيبُ الـرُّعْبُ منـه كُـلَّ عَضْـبٍ   فـلولا الْغِمْـدُ يُمْسِكُـهُ لَسَـالاَ(١)

فذوبان السيف من الرعب أمر ممتنع عقلاً وعادة ، ودخول (لولا) جعله أمراً تقريباً .

ويقول نصر الخابز أرزي :

ذُبْـتُ مِنَ الـشَّـوْقِ فَلَوْ زُجَّ بِـي   فـي مُقْلِةِ النَّـائِمِ لَمْ يَنْتَبِـهْ

ومن الغلو ما يأتي به الشاعر بدون أداة تقريب ، كقول نصر الخابز أرزي في البيت الثاني بعد البيت السابق ذكره :

وكَـانَ لـي فـيمـا مَضَـى خَـاتَـمٌ   فـالآنَ لَـوْ شِئْـتُ تَـمَـنْـطَقْـتُ بِـهِ

فالبيت الأول احتوى على أداة التقـريب (لو) التي أفـادت امتناع وقـوع اللامعقول وهو أن الشاعر من فرط نحوله يكاد لو ألقى به في جفن نائم لما شعر به ، وهذا محال حيث ان الإنسان يشعر بأبسط ذرة غبار تدخل جفنه . أما البيت التالي له الذي لم يحتو على أداة تقريب فهو يبالغ أو يغرق في وصف نحول جسمه حتى أنه يستطيع أن يتخذ من خاتم له نطاقا .

والغلو غير المقبول هو الذي يخلو من أداة تقربه من الصحة ويكون في الوقت نفسه ممتنعاً عقلاً وعادة ، وخاصة ما يصل منه إلى حد الكفر ، ومن ذلك

---

(١) العضب : السيف ، الغمد : جراب السيف الذي يغمد فيه .

قول ابن هانىء الأندلسي في مطلع قصيدة يمدح بها المعز لدين الله الفاطمي :

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فأَنْتَ الواحِدُ القَهَّارُ

ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

تَجَاوَزْتَ مِقْدارَ الشَّجاعَةِ والنُّهَى إلى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بالْغَيْبِ عالِمُ

١٠ ـ الإيغال : ـ

وهو من أنواع المبالغة كما يقول ابن رشيق (إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها) ثم يقول ابن رشيق : (وحكى الحاتمي عن عبد الله بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد قال : حدثني التّوَّزى قال : قلت للأصمعي : مَن أشعر الناس ؟ قال : الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيسا ، أو ينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : نحو الأعشى إذ يقول[1] :

كَنَاطِحٍ صَخْرةٍ يَوْماً ليوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وأَوْهَي قَرْنَه الْوَعِلُ

فقد تم الكلام عند قول الشاعر : (وأوهى قرنه) فلما احتاج إلى القافية قال (الوعل) .

ومنه قول ذي الرمة :

قِفِ الْعِيسَ في أَطْلالِ مَيَّةَ واسْألِ رُسُوماً كأَخْلاَقِ الرِّداءِ الْمُسَلْسَلِ[2]

أظنَّ الذي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤالَها دُمُوعاً كَتَبْدِيدِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ[3]

ففي البيت الأول تم كلامه عند قوله (كأخلاق الرداء) ثم احتاج إلى القافية فقال (المسلسل) ، وكذلك في البيت الثاني تم كلامه عند قوله : (كتبديد الجمان) ثم احتاج إلى القافية فقال : (المفصَّل) فزاد شيئاً بذلك .

يقول ابن رشيق : (وليس بين الناس اختلاف أنَّ امرأ القيس أول من ابتكر .

(١) العمدة جـ ص ٥٧ .

(٢) أخلاق : جمع خلق وهو الثوب البالي . المسلسل : المزق المهلهل .

(٣) الجمان : الفضة . المفصل : العقد الذي تكون فيه خرزة بين كل حبتين من حباته الفضية .

هذا المعنى بقوله[1] :

إذا مَـا جَـرَى شَـأْوَيْنِ وابْتَـلَّ عِـطْفُـهُ   تَقُـولُ هـزيـز الـرِّيـحِ مَـرَّتْ بـأَثْـأَبِ

فقد بالغ الشاعر في وصف فرسه حين قال عنه إنه إذا جرى شوطين وتبلل جانبه بالعرق ، سمعت له صوتاً يشبه صـوت الريـح عند مـروره بشجر الأثـأب والشاعر أتم ما يراه من معنى في قوله : (مرَّت) ثم يتوغل الشاعر أو يغالى بذكر كلمة (أثأب) القافية ، والأثأب شجر للريـح بين غصونـه حفيف عظيم وشـدة صوت . . ومثله أيضاً قول امرىء القيس :

كـأَنَّ عيُـونَ الْـوَحْشِ حَـوْلَ خِبـائِنَـا   وأَرْحُلِنـا الْجِـزْعُ الَّـذي لَمْ يُثَـقَّبِ

فقد تم الكلام عند قوله : (الجزع) ولكن الشاعر أراد الإيغال في تشبيه عيون الوحش بالجزع فزاد بعد ذلك قوله : (الذي لم يثقب) لأنـه احتاج إلى القافية التي تم الكلام قبل الوصول إليها .

وتابع زهير امرأ القيس حين قال :

كـأَنَّ فُتَـاتَ الْعِهْنِ في كُـلِّ مَنْـزِلٍ   نَـزَلْنَ بـه حَبُّ الْقَنَـا لَـمْ يُحَـطَّمِ

فقد أوغل زهير في التشبيه إيغالا حين شبه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحَبِّ القنا الذي لم يُحَطَّم ، لأنه أحمر في ظاهره أبيض في باطنه ، ولا يظهر فيه بياض قط ما لم يُحَطَّمْ . فكلام زهير انتهى عند قوله (حَبّ القنا) ثم احتاج إلى القافية فقال (لم يُحَطَّم) .

ثم جاء الأعشى فتابع كلا من امرىء القيس وزهير ، فقال :

غَـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ مَصْقُـولٌ عَـوَارِضُهَـا   تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجَى الْوَجِلُ

فقد أوغل الأعشى حين قال (الوحل) وكان الكلام قد تم عندما شبه المرأة في مشيتها الهوينا بالوجى .

ومن الإيغال المحبوب قول مسلم بن الوليد في معنى بيت الأعشى السابق :

إذَا مَـا عَـلَتْ مِـنَّـا ذُؤابَـةُ شَـارِبٍ   تَمَشَّتْ بِـه مَشْىَ الْمُقَيَّدِ في الْـوَحْـلِ

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٥٧

وكان هارون الرشيد إذا ما سمع هذا البيت وأعجبه قال : (قاتله الله ، أما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل .

وكذلك كان بيت الخنساء في أخيها صخر من الإيغال الحسن حين تقول :

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُداةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فبعد أن وصفته بأنه إمامٌ وَهادٍ لأئمة الناس ، وشبهته بالجبل الشامخ ، لم تكتف بأن أخاها كالجبل وحسب بل إنه كالجبل الذي أوقدت فوق قمته نار ليهتدى به الضال ويقصد قِراه . فالكلام قد تم عند كلمة (عَلَم) ثم أضافت (في رأسه نار) زيادة منها من أجل القافية . والزيادة هنا زادت المعنى قوة وجمالاً .

كذلك من الإيغال الذي استحسنه البلاغيون قول مروان بن أبي حفصة :

هُمُو الْقَوْمُ : إنْ قَالُوا أصابُوا ، وإنْ دُعُوا أَجَابُوا ، وإنْ أَعْطَوا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا

فالإيغال الحسن هنا قوله : (وأجزلوا) بعد أن قال (وإن أعطوا أطابوا) فلم يكتف الشاعر بوصفهم أنهم كرماء إذا أعطوا أحداً اختاروا له أطيب ما عندهم ، بل وصف هذا العطاء الطيب بأنه كثير جزيل .

فالإيغال إذن إن كان يتطلبه المعنى فيزيده قوة وحسناً وجمالاً وتأثيراً كان إيغالاً جيداً ، ولم يكن زيادة متكلفة من أجل إكمال القافية وحسب .

١١ ـ التقسيم : ـ

وتقسيم الشيء هو تجزيئه . وقد كثرت تعريفات البلاغيين للتقسيم فأبو هلال العسكري يقول : (التقسيم الصحيح : أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ، ولا يخرج منها جنس من أجناسه)[١] .

وقال الخطيب القزويني : (وهو : ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لِكُلٍّ إليه على التعيين) ثم يورد القزويني تعريف السكاكي : (وقال السكاكي : هو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك)[٢] .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٤١ .

(٢) الإيضاح ص ٥٠٦ .

وقال ابن أبي الإصبع : (التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه)[1] .

فمن التعريفات السابقة نستطيع أن نفهم هذا النوع من البديع على أنه
١ - استيفاء لأنواع القسمة في الكلام ثنائية أو ثلاثية أو رباعية .
٢ - أن يضاف إلى كل قسم ما يلائمه ويوافقه ويليق به .
ومن أمثلة تقسيم المعنى إلى اثنين فقط قول المتلمس :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إلا الأَذَلَّانِ عيرُ الْحَيِّ والْوَتِدُ[2]

فقد حدد الشاعر هنا نوعين فقط يرضيان بالذل ، هما الحمار والوتد .

وقول ثابت البناني : (الحمد لله وأستغفر الله) ، ولما سئل : لِمَ خَصَّهما ؟ قال : لأني بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على النعمة ، وأستغفره من الذنوب .

ومن أمثلة تقسيم المعنى وتجزيئه إلى ثلاثة قول زهير :

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ ... يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءٌ
فَذَلِكُمُ مَقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ ... ثَلاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُم شِفَاءٌ

وكان عمر رضي الله عنه يتعجب من صحة هذا التقسيم ويقول : (لو أدركت زهيرا لوليته القضاء لمعرفته) .

ومنه قول نصيب :

فَقَالَ فَرِيقُ الْقَومِ : لا ، وَفَرِيقُهُمْ ... نَعَمْ ، وفَرِيقٌ قَالَ : وَيْحَكَ ما نَدْرِي

فالتقسيم هنا ثلاثي : فريق قال : لا وفريق قال : نعم وفريق ثالث قال : لا ندري .

ومن التقسيم الثلاثي أيضاً قول عمر بن أبي ربيعة :

وَهَبْهَا كَشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ ، أَوْ كَنَازِحٍ ... به الدَّارُ ، أو مَنْ غَيَّبَتْهُ الْمَقَابِرُ

فهو يفترض أن حبيبته الغائبة : إما يعتبرها كشيء لم يكن ، أو كمن رحل

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٦٢ .
(٢) الضيم : القهر والظلم . العير : الحمار .

ونزح به الدار ، أو كمن مات وغاب في القبر .

وقول زهير بن أبي سلمى :

وأَعْـلَمُ عِلْمَ الْـيَـوْمِ والأَمْسِ قَبْـلَهُ ولكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مـا فـي غَـدٍ عَمِ

أي أنني أعلم ما حدث اليوم وما حدث بالأمس ولكنني لا أعلم ما سوف يحدث في المستقبل . . فقد جمع زهير بين الأبعاد الثلاثة للزمن ، الماضي والحاضر والمستقبل .

وأما أمثلة التقسيم المضاف إلى كل جزء منه ما يلائمه ويوافقه ، فمنها قول أحدهم :

أُدِيـبـانِ فـي بَـلْخَ لا يَـأْكُـلانِ إذا صَـحِبَـا الْـمَـرْءَ غَيْـرَ الْـكَـبِـدْ
فَـهَـذَا طَـويـلٌ كَـظِلِّ الْـقَـنَـاةِ وهَـذَا قَـصِـيـرٌ كَـظِلِّ الْـوَتِـدْ

فقد وصف الطويل بأنه كظل الرمح ، ووصف القصير بأنه كظل الوتد .

ومنه قول المتنبي :

سَـأَطْلُبُ حَقِّي بـالْقَنَـا ومَشَـايِـخٍ كَـأَنَّهُمْ من طُـولِ مـا الْتَثَمُـوا مُـرْدُ
ثِقـالٌ إذا لاقَـوْا ، خِفَـافٌ إذا دُعُـوا كَثيـرٌ إذا شَـدُّوا ، قَليـلٌ إذا عُـدُّوا

فقد أضاف الشاعر إلى كل حال ما يلائمها فإن الثقل يلائم حال ملاقاتهم للعدو ، والخفة تلائم حالهم إذا دعوا إلى القتال ، والكثرة تلائم حالهم إذا استعدوا وشَدُّوا للحرب ، والقلة إذا ما قورنوا بعدد عدوهم الذي انتصروا عليه ، لأن الانتصار مع قلة العدد دليل الشجاعة والقوة والخبرة بالحرب .

ومن ذلك أيضاً قول طريح الثقفي :

إنْ يسمعوا الْخَيْرَ يُخْفُـوه وإنْ سَمِعُوا شَرًّا أذاعُوا ، وإن لَمْ يَسْمَعُـوا كَذَبُـوا

فقد أضاف إليهم إخفاء الخير إذا سمعوا خيراً ، وإذاعته إن كان شراً وأضاف إليهم الكذب إن لم يسمعوا شيئاً .

ويكون التقسيم معيباً إذا لم يستوف كل أقسام المعنى ، أو إذا تداخل أحد القسمين في الآخر .

فمثال الأول قول جرير :

صَــارَتْ حَنِيفَـةُ أَثْــلاثــاً فَثُلْثُهُــم مِنَ الْعَبيــدِ ، وثُـلْثٌ مِنْ مــوَالِيـنَــا

فهذا تقسيم معيب وفاسد ، لأنه لم يذكر من الثلاثة التي أشار إليها سوى اثنين فقط وهما العبيد والموالي .

ومثال النوع الثاني من التقسيم المعيب قول أمية بن أبي الصلت :

لِلهِ نِــعْــمَــتُــنَــا تَــبَــارَكَ رَبُّــنَــا رَبُّ الأَنــامِ ، وربُّ مَــنْ يَتَــأَبَّــدُ

فالتقسيم هنا متداخل حيث إن (من يتأبد ويتوحش داخل في (الأنام) ومنه قول جميل بن معمر :

لَــوْ كَــانَ فِي قَلْبِي كَقَــدْرِ قُــلاَمــةٍ حُبًّــا ، وَصَلْتُـكِ أَوْ أَتَتْــكِ رَسَـائِلِي

فعيب التقسيم هنا أن الوصل متداخل في مجيىء الرسائل منه إليها .

١٢ ـ الجمع : ـ

وهو أن تجتمع عدة أشياء تحت حكم واحد كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . فقد جمع بين المال والبنون وأعطاهما حكماً واحداً هو زينة الحياة الدنيا .

ومنه قول النبي ﷺ : (مَنْ أَصْبَحَ آمِناً في سِرْبِه ، مُعَافىً في بَدَنِه ، عندَه قُوتُ يومِهِ ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بِحذَافِيرِها) .

فقد جمع هنا أمان النفس ، ومعافاة البـدن ، والحصول على قـوت اليوم تحت حكم واحد وهو حيازة أو امتلاك الدنيا بكل نواحيها .

ومنه قول أبي العتاهية :

إنَّ الْـفَــراغَ والـشَّــبَــابَ والْـجِـدَة مَــفْـسَــدَةٌ لِــلْمَــرْءِ أيّ مَـفْــسَــدَة

فقد جمع كلاًّ من الفراغ والشباب والغنى تحت حكم واحد وهو الفساد لما اجتمعت لديه هذه الأشياء .

١٣ ـ التفريق : ـ

وهو أن تعمد إلى شيئين من جنس واحد فتوجد بينهما تفريقاً في درجة كل

منهما زيادة أو نقصاناً .

ومنه قول الشاعر :

قَـاسُـوكِ بـالْـغُصْـنِ في التَّثَنِّي ... قِـيـاسَ جَـهْـلٍ بِـلا انْـتِـصـافِ
هَـذاكِ غُـصْـنُ الْـخِـلافِ يُـدْعَى ... وأنْـتِ غُـصْـنٌ بِـلا خِـلافِ

وهنا شيئان من نوع واحد على التشبيه وهما غصن شجر الخلاف وقوام صاحبته المشابه للغصن في مرونته وتثنيه ، ولكنه فرّق بينهما في الصفة ، فالغصن الحقيقي هو غصن شجرة الخلاف ، أما صاحبته فهي غصن بلا خلاف .

ومن التفريق قول الوطواط :

مـا نَـوَالُ الْـغَمَـامِ وقْـتَ رَبِيـعٍ ... كَـنَـوالِ الأَمِـيـرِ يَـوْمَ سَـخَـاءِ
فَـنَـوالُ الأمـيـرِ بَـدْرَةُ عَـيْـنٍ ... ونَـوَالُ الْـغَـمَـامِ قَـطْرَةُ مَـاءِ[1]

فالنوال هنا نوع واحد ، غير أنه فَرَّق بين نوال الأمير الكثير الثمين ونوال الغمام الذي هو قطرة من الماء .

١٤ ـ الجمع مع التفريق : ـ

وهو أن تجمع شيئين في معنى واحد وتفرق بين جهتي دخولهما ومن ذلك قول الوطواط :

فَـوَجْهُـكِ كـالـنَّـارِ فـي ضَـوْئِهـا ... وقَـلْـبِـيَ كـالـنَّـارِ فـي حَـرِّهَـا

شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار ، وفَرَّق بين وجهي المشابهة فوجه الحبيب كالنار في ضوئها ، وقلبه كالنار في حرها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتيْنِ ، فَمَحَوْنَـا آيةَ اللَّيْـلِ ، وجَعَلْنَا آيـةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2] .

فالجمع هنا بين الليل والنهار في حكم واحد وهو أن كلا منهما آية أو علامة

---

(١) البدرة : كيس يحتوي على ألف أو عشرة آلاف أو سبعة آلاف دينار . النوال : العطاء ، أو ما ينال .
(٢) الإسراء ـ بعض الآية ١٢ .

على القدرة والحكمة ، ولكن فرَّق بين الليل والنهار في الحكم نفسه إذ الليل يكون مظلماً ، والنهار يكون مضيئاً .

ومن ذلك أيضاً قول البحتري :

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا والنَّقَا مَوْعِدٌ لَنَا   تَعَجَّبَ رائِي الدُّرِّ مِنَّا ولاَ قِطُه
فَمِنْ لُؤْلُوءٍ تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا   وَمِنْ لُؤْلُوءٍ عِنْدَ الْحَديثِ تُسَاقِطُه

فالشاعر هنا يجمع بين شيئين في حكم واحد وهو التشبيه باللؤلؤ غير أن هناك اللؤلؤ المرئي وهو أسنان وثنايا صاحبته ، ثم اللؤلؤ المُلْتَقَطُ وهو كلمات صاحبته التي تشبه اللؤلؤ المتساقط من فمها .

١٥ ـ الجمع مع التقسيم : ـ

وقد عرّفه القزويني بأنه[1] (جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه ، أو تقسيمه ثم جمعه ، **فالأول مثل** قول المتنبي من قصيدة له يصف فيها موقعة حدثت بين سيف الدولة وجيش الروم ، يقول :

حَتَّى أَقَام على أَرْباضِ خرشَنَةٍ   تَشْقَى بِه الرُّومُ والصُّلْبَانُ والْبِيَعُ[2]
لِلسَّبْي ما نَكَحُوا ، والْقَتْلِ ما وَلَدُوا   والنَّهْبِ ما جَمَعُوا ، والنَّارِ ما زَرَعُوا

ففي البيت الأول يجمع المتنبي بين الروم جميعاً رجالاً ونساء وأولادا وصلباناً وكنائس تحت حكم واحد وهو الشقاء ، ثم بين أقسام الشقاء وهي سبى النساء ، وقتل الأولاد ، ونهب الأموال والأملاك ، وإحراق الزرع ، فكل نوع أتى له بما يوائمه ويلائمه .

ومثال الثاني وهو التقسيم أولاً ثم الجمع ، قول حسان بن ثابت :

قَوْمٌ إذا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ   أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ في أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ   إنَّ الْخَلاَئِقَ ـ فاعْلَمْ ـ شَرُّها الْبِدَعُ

فقد بدأ الشاعر بالتقسيم ثم الجمع ، فالتقسيم في قوله إن هؤلاء القوم إذا

---

(١) الإيضاح ص٥٠٧ .

(٢) أرباض خرشنة : ضواحي مدينة خرشنة   البيع : جمع بيعة وهي الكنيسة .

حاربوا عدوهم أضروه ، وإن حاولوا نفع أحلافهم نفعوهم ، ثم جمع مـا يفعله هؤلاء القوم بأعدائهم وبأشياعهم تحت حكم واحد وهو أن ذلك (سجية فيهم) أي طبع فيهم .

١٦ ـ الجمع مع التقسيم والتفريق : ـ

وهذا النوع من البديع يشمل الجمع والتقسيم والتفريق معاً ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يأتي لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وسَعيدٌ ، فَأَمَّا الـذين شَقُوا ففي النارِ ، لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وشَهِيقٌ ، خَالِدينَ فيها ما دامتِ السَّمواتُ والأرض إلا ما شاءَ ربُّك ، إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لما يريد ، وأما الذين سَعِدُوا ففي الجنة خالدين فيها ، ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك ، عطاءً غَيْرَ مَجْذُوذ ﴾[1] .

فالجمع هنا في قوله تعالى : ﴿ **يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ فإن قوله ﴿ **نفس** ﴾ متعدد معنى ، لأن النكرة في سياق النفي تَعُمُّ ، وأما التفريق ففي قوله تعالى : ﴿ **فمنهم شقي وسعيد** ﴾ ، وأما التقسيم ففي قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين شقوا** . . . ﴾ إلى آخر الآية .

ومن ذلك النوع أيضاً قول ابن شرف القيرواني :

لِمُخْتَلِفِي الْحَـاجَـاتِ جَمْـعٌ بِبـابِـهِ   فَـهـذَا لَـهُ فَـنٌّ ، وهَـذَا لَـهُ فَـنُّ
فَلِلْخَـامِلِ الْعَلْيَـا ، ولِلْمُعْـدِمِ الْغِنَى   ولِلْمُـذْنِبِ العُتْبَى ، ولِلْخـائِفِ الأَمْنُ

فقد جعل الاجتماع ببابه حكماً واحداً يجمع بينهم ، وجعـل التفريق في قوله : (فهذا له فنّ وهذا له فن) ، ثم كان التقسيم في البيت الثاني ، فالعلياء للخامل ، والغني للمعـدم ، والعتبي للمذنب ، والأمن للخـائف ، فأعـطى كل واحد منهم ما يناسب حاله ويلائمه .

١٧ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم : ـ

وهو من فنون البديع التي اهتدى إليها ابن المعتز غير مسبوق واعتبره من محاسن الكلام ، وبعض البلاغيين يسمى هذا النوع (الاستثناء) .

---

(١) هود ـ الآيات من ١٠٥ ـ ١٠٨ .

وينقسم هذا النوع البديعي إلى قسمين أساسيين :

أولهما وهو أفضلهما أن يؤتى بصفة ذم منفية عن الشيء ، يستثنى منها صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم المستثنى منها .

وذلك كقول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الْكَتائِبِ

فصفة الذم هنا (عيب) منفية بـ (لا) ثم جاءت أداة الاستثناء (غير) لتوهم أن ما بعدها ذم لأنه يخالف المستثنى منه في الحكم فإذا كان المستثنى منه ينفي عنهم العيب فإن المستثنى يثبت صفة للعيب وهي أن سيوفهم بها فلول ولكن إذا نظرنا إلى صفة العيب هذه وجدناها صفة مدح لأن فلول السيوف لا تحدث إلا بكثرة استعمال السيف في الحروب وقراع الجيوش وهذا دليل الشجاعة والإقدام ، كما أن هذا المدح تأكد بأسلوب الاستثناء . إذن تأكد مدح هؤلاء في صورة تشبه الذم . وكان هذا التأكيد كدعوى الشيء ببينة وبرهان ودليل .

ثانيهما كقول النبي ﷺ (أنا أفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أني من قريش) .

فهذا المثال من قول النبي ﷺ ، أن أصل الاستثناء فيه متصل ، بمعنى أن السامع يتوهم قبل أن ينطق المتكلم بما بعد أداة الاستثناء أن ما سيأتي بعدها مخالف في الحكم لما قبلها ، فيكون شيء من صفة الذم ثابتاً ، فإذا أتت بعد أداة الاستثناء صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام حين ذكر أنه أفصح العرب ، ثم جاء بأداة الاستثناء ، يتوهم السامع أن ما يأتي بعدها مخالف في الحكم ، ولكن الذي جاء بعد أداة الاستثناء ليس مخالفاً لأن قبيلة قريش أفصح قبائل العرب .

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم نوع آخر يكون فيه المستثنى تابعاً أو معمولاً لفعل فيه معنى الذم ، وذلك حين يكون الاستثناء مفرَّغا . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وما تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لَمَّا جاءَتْنَا ﴾[1] .

فالفعل الذي يحمل معنى الذم هو (تنقم) والاستثناء هنا مفرغ لحذف

(١) الأعراف - بعض الآية ١٢٦ .

المستثنى منه ، وما بعد أداة الاستثناء لا يحمل معنى العيب والذم رغم تعلقه بفعل يحمل معنى الذم . لذلك كان القول هنا تأكيداً للمدح الذي ما بعده مدح وهو الإيمان بآيات الله .

وليس كل أسلوب استثناء يُعَدُّ من هذا النوع البديعي وهو (تأكيد المدح بما يشبه الذم) وإن كان من محسنات الكلام ، مثل قوله تعالى :

﴿ ولا تَنْكِحُوا ما نكَحَ آباؤُكم من النِّساءِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ ﴾ .

فالعرض هنا هو المبالغة في تحريم الزواج من زوجة الأب ، لأن ما بعد أداة الاستثناء هنا (ما قد سلف) أي ما حدث قبل نزول النهي عنه ، فتحقيقه محال .

فهذا النوع البديعي كما سبق يشتمل على ضربين أساسيين هما استثناء صفة مدح من صفة ذم منفية عن الشيء ، بتقدير دخول صفة المدح في صفة الذم المنفية عن الشيء قبلها .

والضرب الثاني يكون باستثناء صفة مدح من صفة مدح قبلها ، ومثلنا لذلك بالحديث الشريف .

وزيادة في أمثلة الضرب الأول نذكر بعض أمثلة ، منها قول حاتم الطائي :

ومـا تَـشْتَـكِي جَـارَتي غَيْـرَ أَنَّـني ... إذا غـابَ عَنْهَـا بَعْلُهَـا لا أَزُورُهَـا

ومنه قول ابن الرومي :

لَـيْسَ لـه عَـيْـبٌ سِـوَى أَنَّـهُ ... لا تَـقَـعُ الْـعَـيْنُ عـلَى شِبْـهِـهِ

وقول ابن هفّان :

ولاَ عَيْبَ فِينَـا غَيْـرَ أنَّ سَمَـاحَنَـا ... أَضَـرَّبِنَا ، والْبَـأْسَ مِنْ كـلِّ جـانِبِ

وقول آخر :

ولا خَيْـرَ في مَعْـرُوفِهِمْ غَيْـرَ أَنَّـهُ ... يُبَيِّن عَجْـزَ الشَّـاكِـرينَ عَنِ الشُّكْـرِ

وقول أبي هلال العسكري :

ولا عَيْبَ فِيــهِ غَيْرَ أنَّ ذَوِي النَّـدَى ... خِـسَـاسٌ إذا قِيـسُـوا به ولِئَـامُ

وقول صفي الدين الحلى :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أنَّ النَّزِيـلَ لَهُمْ ... يَسْلُو عَنِ الأَهْـلِ والأَوْطَانِ والْحَشَمِ

وقول آخر :

وَلا عَيْبَ فِيهِ لامْرِىءٍ غَيْرَ أَنَّهُ ... تُعابُ لَهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ يُعَابُ

وقول ابن نباتة :

ولا عَيْبَ فِيهِ سِوَى الْعَزَائِمِ قَصَّرَتْ ... عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وهْيَ بَعْدُ تُحَلِّقُ

ومن أمثلة الضرب الثاني وهو استثناء صفة مدح من صفة مدح قبل أداة الاستثناء ، قول النابغة الجعدي :

فَتىً كَمُلَتْ أَخْلاَقُه غَيْرَ أنَّه ... جَوادٌ فما يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

فتىً كَانَ فيهِ ما يَسُرُّ صَدِيقَه ... عَلَى أنَّ فيهِ ما يُسِيءُ الأَعَادِيَا

فالمستثنى منه هو (كمال الأخلاق) وهي صفة مدح ، والمستثنى هو (الجواد الذي يفنى المال) وهو أيضاً مدح .

وفي البيت الثاني صفتان للمدح أيضاً ، الأولى (يسر الصديق) والثانية (يسىء العدو) .

ومنه قول بعضهم :

أُدَافِعُ عنْ أَحْسَابِهِمْ غَيْرَ أنَّني ... وَحَاشَايَ يَوْماً لاَ أَمُنُّ عَلَيْهِمُو

فالمدح الذي قبل أداة الاستثناء هو (الدفاع عن الأحساب) والمدح الذي بعد أداة الاستثناء هو (عدم المنِّ عليهم بما يفعل من أجلهم) .

وقول آخر :

أَطْلُبُ الْمَجْدَ دَائِباً غَيْرَ أنِّي ... في طِلاَبِي لا تَعْرِفُ الْيَأْسَ نَفْسِي

فما قبل أداة الاستثناء (المداومة على طلب المجد) وهو مدح ، وما بعد أداة الاستثناء (نفسه لا تعرف اليأس في طلب المجد) وهو أيضاً صفة من صفات المدح .

١٨ ـ تأكيد الذم بما يشبه المدح : ـ

وهذا النوع البديعي عكس النوع السابق كما هو واضح من اسمه ، وهو نوعان : **أحدهما** : أن يؤتى بصفة مدح منفية عن الشيء ثم يستثنى منها صفة ذم بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية قبل أداة الاستثناء ، كقولك : (فلان لا خير فيه إلا أنه يسىء إلى من يحسن إليه) .

فصفة المدح المنفية قبل أداة الاستثناء هي (خير فيه) وصفة الذم التي بعد أداة الاستثناء بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية ، هي (يسيء إلى من يحسن إليه) .

وثانيهما : استثناء صفة ذم من صفة ذم قبلها مثبتة للشيء ، وذلك كقولك : (فلان فاسق إلا أنه جاهل) .

فصفة الذم المثبتة للشيء هي (فاسق) وصفة الذم المستثناة هي (جاهل) . وكان من المتوقع أن يكون ما بعد أداة الاستثناء مدحاً حتى يخالف المستثنى منه في الحكم ، ولكنْ تأكيداً للذم جاء المستثنى متصلاً بالمستثنى منه في حكمه .

١٩ ـ المذهب الكلامي : ـ

في هذا النوع البديعي انقسم البلاغيون قسمين رئيسيين من حيث جواز الاستشهاد عليه بأمثلة من القرآن الكريم أو عدم جواز ذلك .

فالذين تحرجوا من الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم لهذا النوع البديعي هم أوائل البلاغيين ومنهم ابن المعتز الذي يعدُّه أحد الفنون البديعية الخمسة الأساسية التي بنى عليها (كتاب البديع) ويقول : (هو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي ، وهذا باب ما أعلم أنى وجدت في القرآن منه شيئاً وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[١] .

وممن تابعوا ابن المعتز في رأيه ابن رشيق الذي وصف هذا النوع البلاغي بأنه (مذهب كلامي فلسفي)[٢] .

وقبل ابن رشيق ، جاري أبو هلال العسكري في هذا النوع البديعي ابن المعتز وقال عن المذهب الكلامي : (جعله عبد الله بن المعتز الباب الخامس من البديع ، وقال : ما أعلم أني وجدت منه شيئاً في القرآن ، وهو ينسب إلى التكلف ، فنسبه إلى التكلف وجعله من البديع)[٣] .

---

(١) كتاب البديع ص٥٣ ـ ٥٧ .

(٢) العمدة جـ٢ ص٧٦ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٤١٠ .

أما المتأخرون فإن لهم رأياً يخالف ابن المعتز ومن لف لفه من حيث عدم جواز الاستشهاد بآيات من القرآن في هذا النوع البديعي .

ويبدو أن السبب في الاختلاف هو اختلاف مفهوم هذا الفن بين الفريقين ، حيث نجد الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) ومَنْ بعده يضعون تعريفاً لهذا النوع البديعي يجيز الاستشهاد فيه بآيات القرآن ، يقول الخطيب القزويني في تعريف هذا النوع[١] :

(المذهب الكلامي ، وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[٢] ويقصد القزويني (بطريقة أهل الكلام) أن تكون الحجة مستلزمة للمطلوب بعد تسليم المقدمات .

وفي القرن التاسع الهجري نجد ابن حجة الحموي في تعريفه لهذا النوع من البديع[٣] يقول (وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعه عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام ، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة) .

ثم يرد على ابن المعتز زعمه بأنه لا يعلم ذلك في القرآن ، فيقول ابن حجة : (وليس عدم علمه ـ أي ابن المعتز ـ مانعاً علم غيره ، إذ لم يستشهد على هذا المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن ، وأصحُّ الأدلة في شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى : ﴿ لو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله ، وتمام الدليل أن تقول : لكنهما لم تفسدا فليس فيما آلهة غير الله) .

وقد استشهد الذين عارضوا رأي ابن المعتز وغيره بكثير من آيات القرآن الكريم على هذا النوع البلاغي ، من ذلك قوله تعالى :

---

(١) الإيضاح ص٥١٦ .

(٢) الأنبياء ـ بعض الآية ٢٢ .

(٣) خزانة الأدب ص٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُو أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[1] .

بمعنى : (والإعادَةُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ من البدْء ، والأهْـوَنُ من البدء أدْخَـلُ في الإمكانِ من الْبَدْءِ ، فالإعادةُ أدْخَلُ في الإمكانِ من البدء ، وهُوَ المطلوب)[2] .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أحِبُّ الآفلين ﴾[3] .

أي : القمر آفل ، وربي ليس بآفل ، فالقمر ليس بربي .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ .

أي : أنتم تعذبون ، والبنون لا يُعَذَّبون . فلستم إذن بنين له .

ومن الشواهد غير القرآنية في هذا اللون البديعي .

قول النبي ﷺ : (لو تَعْلَمُون ما أعلمُ لَضَحِكْتُمْ قليلا وَلَبَكَيْتُمْ كثيرا) .

وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيراً ، وبكيتم قليلاً فلم تعلموا ما أعلم .

ومنه قول النابغة الذبياني يعتذر إلى النعمان بن المنذر :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِـكَ رِيبَـةً ... ولَـيْسَ وراءَ الله لِـلْمـرْءِ مَـطْلَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَـدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيـانَـةً ... لَـمُبْلِغُـكَ الْـوَاشِي أَغَشُّ وأَكْـذَبُ
ولـكِنَّني كُـنْـتُ امْـرَأً لِـيَ جَـانِـبٌ ... مِنَ الأَرْضِ فِيـهِ مُسْتَرادٌ وَمَـذْهَبُ
مُـلُوكٌ وإخْـوانٌ إذا مَـا مَـدَحْتُـهُـمْ ... أُحَـكَّـمُ فـي أَمْـوالِـهِـمْ وأُقَـرَّبُ
كَفِعْلِكَ في قَـوْمٍ أراكَ اصْـطَفَيْتَهُمْ ... فَلَمْ تَـرَهُمْ في مَدْحِهِمْ لَـكَ أَذْنَبُـوا

فالشاعر هنا يعتذر للنعمان ، ويثبت له بطريقة منطقية أنه لم يخطىء في حقه حين امتدح قوماً غيره أكـرموه وقـربوه منهم ، فكمـا أن النعمان لا يغضب ممن

---

(١) الروم - بعض الآية ٢٧ .
(٢) الإيضاح ص ٥١٦ .
(٣) الأنعام - بعض الآية ٧٦ - أفل : أي غاب واختفى .

يمدحونه ويقربهم منه ، فكذلك لا يجوز له أن يغضب على النابغة إذا ما مدح قوماً أكرموه وقربوه منهم وحكّموه في أموالهم .

ومنه أيضاً قول الفرزدق :

لِكُلِّ امْرِىءٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وأُخْرَى يُعَاصِيهَا الْفَتَى وَيُطِيعُهَا

وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إذا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

ومنه قول أبي نواس :

إنَّ هَذا يَرَى ـ ولا رَأْيَ لِلأحْـ ـمَقِ ـ أنّي أَعُدُّه إنْسَانَا

ذَاكَ في الظَّنِّ عِنْدَهُ وَهْوِ عِنْدِي كالَّذِي لَمْ يَكُنْ وإنْ كَانَ كَانَا

ففي كل من قول الفرزدق وأبي نواس يبدو فيهما أن الشاعر عنده دعوى يريد إثباتها بدليل مقنع ، كما يصنع علماء الكلام بأن يوردوا الحجج العقلية لإثبات دعاواهم .

٢٠ ـ الالتفات : ـ

وقد عَرَّفه ابن المعتز بقوله : (هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات : الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر)[١] .

وبتعريف ابن المعتز هذا يكون الالتفات عنده يشمل شيئين : أولهما ما عرف بالالتفات عند المتأخرين ، والثاني نوع من الاعتراض،وابن المعتز في الشق الأول من تعريفه للالتفات سبقه إليه أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) وإن كان أبو عبيدة لم يعطه الاسم البديعي الذي سماه به ابن المعتز .

يقول ابو عبيدة في مقدمة (مجاز القرآن) :

(ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها الشاهد ، قول الله تعالى : ﴿ ألم ذَلِكَ الكتابُ ﴾ مجازه : هذا القرآن ، ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ،

---

(١) كتاب البديع ص ٥٨ .

قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ . أي بكم .

ومن مجاز ما جاء خبراً عن غائب ، ثم خوطب الشاهد ، قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ، أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ .

ثم كان الْمُبَرِّدُ بعد أبي عبيدة ، في السبق إلى إدراك هذا اللون البديعي دون تسميته أيضاً ، وذلك حين يعلق المبرد على بيت الأعشى :

وأَمْتَعَنِي عَلى الْعَشَا بِوليدَةٍ فَأُبْتُ بِخَيْرٍ مِنْكَ يا هَوْذُ حَامِدَا

يقول المبرد[1] : (فإنه كان يتحدث عنه ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المخاطبة ، والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب) ثم ساق أمثلة من القرآن والشعر .

وأما الشق الثاني من تعريف ابن المعتز« للالتفات ، فقد سبقه إليه الأصمعي ، قال ابن رشيق[2] : (وحكى عن اسحاق الموصلي أنه قال : قال لي الأصمعي : أتعرف التفات جرير؟ قلت : وما هو؟ فأنشدني :

أَتَنْسَى إذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بِعَوْدِ بشامةٍ؟ سقْيَ الْبشَام[3]

ثم قال : أما تراه مقبلاً على شعره إذا التفت إلى البشام فدعا له) .

ومن أمثلة الالتفات في الشعر غير ما تقدم قول جرير :

طَرِبَ الْحَمامُ بِذِي الأَراكِ فَشَاقَنِي لا زِلْتَ في عَلَلٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ

فجرير هنا التفت إلى المخاطبة في الشطر الثاني من البيت وكان في الشطر الأول يخبر عنه .

ومن الالتفات انصراف المتكلم عن معنى إلى معنى آخر ، كقول أبي تمام :

وأَنْجَدْتُمُو مِنْ بَعْدِ إتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ

---

(١) رغبة الآمل جـ ٦ ص ١٢٨ ـ هَوْذ ترخيم هَوْذة وهو اسم الممدوح .

(٢) العمدة حـ ٢ ص ٤٤ .

(٣) البشام : شجر ذو رائحة عطرة ولا ثمر له . والبشامة بن الغدير وابن حزن شاعران .

فالشاعر في شطر بيته الأول يخاطب من كان دارهم في تهامة ثم أصبح في نجد ، ثم يلتفت في الشطر الثاني بعد ذلك إلى معنى آخر حين ينادي الدمع ويطلب منه النجدة والمساعدة على ساكني نجد .

ومنه أيضاً قول المعطل الهذلي :

تَبينُ صُلاةُ الْحَرْبِ منَّا ومِنْهُمُو إذا ما الْتَقَيْنَا والْمُسَالِمُ بادِنُ[1]

فقد رجع الشاعر عن المعنى الأول حين قال في آخر البيت :

(والمسالم بادن) ، والمعنى الأول الذي رجع عنه هو وصف صُلاة الحرب

وقد أوضح ابن الأثير مفهوم الالتفات حين قال عنه :

(وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، أو غير ذلك)[2] .

٢١ - أسلوب الحكيم : -

وقد عرض له الجاحظ[3] وسماه (اللغز في الجواب) وأفرد له بابا ومثّل له ، أما المتأخرون فقد أطلقوا عليه (القول بالموجب) ومنهم ابن أبي الإصبع[4] ، وابن حجة الحموي[5] ، والخطيب القزويني[6] وغيرهم .

وأسلوب الحكيم هو تَلَقِّي المخاطب بغير ما يترقَّبُه ، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله ، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد ، إشارة إلى أنه كاد

---

(١) تبين : تستبين . صلاة الحرب بضم الصاد أي الذين يصلون نار الحرب وهي جمع صالٍ . بادن : بدين ، يريد أن يقول ان المحارب ضامر والمسالم بادن .

(٢) المثل السائر ص ١٦٧ .

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٤٨ و٢٨٢ .

(٤) تحرير التحبير ٢٧٠ .

(٥) خزانة الأدب ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) الإيضاح ٥٣٥ - ٥٣٤ .

ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى .

ومما أورده الجاحظ من أمثلة لهذا النوع أن رجلا سأل بلالا مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة : مَنْ سَبَق ؟ قال : سبق المُقرَّبون . قال : أنا أسألك عن الخيل . قال : وأنا أجيبك عن الخير . فترك بلال جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له .

ومن أمثلة هذا النوع البديعي أيضاً أنه قيل لتاجر : كم رأس مالك ؟ فقال : إني أمين وثقة الناس بي عظيمة ، ففي هذا المثال كان رد التاجر حكيماً ، ولم يجب بما يترقبه السائل ، لأن السائل يسأل التاجر عن كمية رأس ماله ، فرد عليه التاجر بإجابة سوال لم يسأله أو كان ينبغي أن يسأله ، إذ بين له أن ثروته كونها بأمانة ودليل ذلك أن ثقة الناس فيه عظيمة .

ومثال آخر : قيل لرجل هَرِمٍ : كم سنُّك ؟ فقال : إني أنعم بالعافية .

وفي هذا المثال نجد إجابة الشيخ الهرم لم تكن عن السؤال الموجه إليه ، بل عن سؤال لم يوجه إليه ، إشعاراً للسائل بأنه ليس هكذا يجب أن يكون السؤال .

وقد قَسَّم الخطيبُ القزويني هذا النوع البديعي إلى ضربين :

أحدهما : ـ (أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم ، فثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء ، من غير تَعَرُّض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه)[1] .

كقوله تعالى : ﴿ يَقُولونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، ولِلّهِ الْعِزَّةُ ولرَسولِهِ ولِلْمُؤْمِنينَ ﴾[2] .

فإنهم كَنَّوا بالأعزّ عن فريقهم ، وبالأذلّ عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز

(١) الإيضاح ص ٥٣٢ .

(٢) المنافقون ـ بعض الآية ٨ .

الإخراج فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعريض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ، ولا لنفيه عنهم .

وثانيهما : - (حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلّقة)[1] .

كقول ابن حجاج :

قُـلْتُ : ثَـقَّـلْتُ إذْ أَتَـيْـتُ مِـرَاراً　　قَـالَ : ثَقَّلْتَ كـاهِلِي بـالأَيَـادِي
قُلْتُ : طَوَّلتُ ، قَالَ : لا ، بلْ تَطَوَّلْتَ　　وأَبْـرَمْـتُ قـالَ : حَـبْـلَ وِدادِي

والبيتان في رواية أخرى :

قَـالَ : ثَـقَّـلتُ إذْ أَتَـيْـتُ مِـرَاراً　　قُـلْتُ : ثَقَّلْتَ كـاهِلِي بـالأَيَـادِي
قَـالَ : طَوَّلتُ ، قُلْتُ : أُوليتَ طـولاً　　قالَ : أبْرَمْتُ ، قلتُ : حَبْـلَ وِدَادِي

فصاحب الشاعر يقول له : لقد ثَقَّلتُ عليك بكثرة زياراتي ، فيصرفه الشاعر عن رأيه في أدب وظرف وينقل كلمته (ثقلت) من معناها إلى معنى آخر ويقول لـه : إنك ثَقَّلتَ كـاهلي بما أغـدقت عليَّ من نعم . وفي البيت الثاني يقـول صاحبه : لقد طوَّلتُ في الإقامة عندك ، وأبرمتك أي جعلتك تتبرَّمَ وتضجر ، فيرد عليه الشاعر في أدب وظرف مرة أخرى فينقل كلامه من معناه إلى معنى آخر ، ويقول له : إنك تَطَوَّلتَ وأنعمتَ عليَّ وجعلت حبل ودادي محكماً قوياً .

ومنه قول الشاعر :

طَـلَبْـتُ مِـنْـهُ دِرْهَـمـاً　　يَـوْمـاً فَـأَظْـهَـرَ الْـعَـجَـبْ
وقَـال : ذَا مِـنْ فِـضَّـةٍ　　يُـصْـنَـعُ لا مِـنَ الـذَّهَـبْ

فقد صرفه عن طلب الدرهم بلطف ورفق ، ولم يجبه عن سؤاله ، بل أجاب عليه بما يخالف مطلبه ، ليشعره أنه ما كان ينبغي له أن يطلب منه الدرهم .

ومنه قول الأرَّجاني :

غَـالَـطَتْنِي إذْ كَسَتْ جِسْمِيَ الضَّنَـا　　كُسْـوَةً عَـرَّتْ من اللَّحْمِ الْعِـظَامَـا

---

(1) الإيضاح ص ٥٣٣ .

ثُمَّ قَـالَتْ : أَنْتَ عِنْـدِي في الْهَـوَى مِثْـلُ عَيْنِي ، صَـدَقَتْ لَكِنْ سَقَـامَـا

فقولها (مثل عيني) أرادت به الاعتزاز الشديد ، ولكنه حمله على أنه سقام ومرض .

ومنه قول شاعر في الرثاء :

ولَمَّـا نَعَى النَّـاعِي سَـأَلْنَاهُ خَشْيَـةً وللْعَيْنِ خَـوْفَ الْبَيْنِ تَسْكَـابُ أَمْـطَارِ

أَجابَ قَضَى ! قُلْنَا قَضَى حَاجَةَ الْعُلاَ فَقَـالَ مَضَـى ! قُلْنَـا بِـكُـلِّ فَخَـارِ

فقوله (قضى) يريد به (مات) ولكن حمل هذا على قضاء الحاجات وهذا ما لم يقصده . وقوله (مضى) يريد به (مات) وحمل على أنه مضى بـالخير والفضل ولم يترك منه شيئاً لأحد .

ومنه قول ابن دويدة المغربي من أبيات يخاطب بها رجلاً أودع بعض القضاة مالا فادَّعى القاضي ضياع هذا المال :

إنْ قَـالَ : ضَـاعَتْ فَيَصْـدُقُ ، إِنَّهَـا ضَاعَتْ ، ولكِنْ مِنْكَ يَعْنِي ، لَوْ تَعِي

أو قَالَ : قَدْ وَقَعَتْ ، فَيَصْـدُقُ ، إنَّها وقَعَتْ . وَلكِنْ مِنْـهُ أَحْسَنُ مَـوْقِـعِ

وقريب من هذا قول شاعر آخر :

وَإِخْـوانٍ حَـسِـبْـتُـهُـم دُرُوعَـا فَـكَـانُـوهَـا ، ولـكِـنْ لِـلأَعَـادِي

وَخِـلْتُـهُـمُ سِـهَـامـاً صَـائِـبَـاتٍ فـكَـانُـوهَـا ، ولـكِـنْ فـي فُـؤَادِي

وقَـالُـوا : قَـدْ صَفَتْ مِنَّـا الْقُلُوبُ لَقَـدْ صَـدَقُـوا ، ولكـنْ مِنْ وِدادِي

وبعد هذه الأنواع التي ذكرناها بأمثلتها من المحسنات البديعية المعنوية ، ننتقل لنذكر بعض أنواع المحسنات البديعية اللفظية .

ثانياً : المحسِّنات اللفظية : ـ

١ ـ الجناس : ـ

ويسمى كذلك : التجنيس والتجانس والمجانسة . ومعناه أن يحدث تجانس أي تشابه بين كلمتين في النطق ويكون معناهما مختلفاً .

ويعد الجناس من أكثر أنواع البديع تبويباً وتنويعاً عند علماء البلاغة ، حتى

انهم اختلفوا فيه ، وتداخلت أبوابه عند بعضهم . وفيما يلي نتناول أهم أقسامه في إيجاز :

ينقسم الجناس قسمين رئيسيين هما : الجناس التام ، وشرطه أن تتفق حروف اللفظين في عددها وترتيبها ونوعها وضبطها . وهذا القسم هو أفضل أنواع الجناس والمقدم فيها .

أما الجناس غير التام أو الجناس الناقص فهو الذي يفقد بعض ما يشترط في الجناس التام .

أولاً : الجناس التام : -

وينقسم الجناس التام إلى ثلاثة أقسام : الجناس المماثل والجناس المستوفي وجناس التركيب .

١ - الجناس المماثل : -

وهو أن يكون لفظا الجناس من نوع واحد ، أي أن يكونا اسمين أو فعلين أو حرفين .

فالاسمان كقوله تعالى : ﴿ **ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَة ، يُقْسِمُ المُجْرِمونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة** ﴾[1] .

فالاسمان هنا (الساعة) و(ساعة) الاسم الأول بمعنى يوم القيامة والثاني بمعنى ساعة من الزمن في الدنيا .

ومنه قول زياد الأعجم - وقيل : الصَّلَتَان العبدي - يرثى المغيرة ابنَ المهلَّب :

فانْعَ المُغِيرةَ لِلْمُغيرَةِ إذْ بَدَتْ شَعْواءَ مُشعلةً كَنَبْحِ النَّابِحِ

فالمغيرة الأولى اسم رجل وهو المغيرة بن المهلب ، والمغيرة الثانية ، هي الفرس أي ثانية الخيل التي تُغِير .

(١) الروم - بعض الآية ٥٥ .

ومنه ما أورده سيبويه لذى الرمة[1] :

أُنيخَتْ فَأَلْقَتْ بَلْدةً فَوْقَ بَلْدَةٍ   قَليلٍ بها الأَصْواتُ إلا بُغَامُهَا

فالبلدة الأولى : صدر الناقة ، والبلدة الثانية المكان من الأرض ، الذي يطلق عليه بلدة أو بلد .

وأما الجناس المماثل بين فعلين ، فمثاله قول الشاعر :

يا إخْوَتِي مُذْ بَانَت النُّجُبُ   وَجَبَ الْفُؤادُ وكَانَ لا يَجِبُ

فَارَقْتُكُمْ وَبقيتُ بَعْدَكُمُ و   مَا هكذا كَانَ الَّذِي يَجِبُ

فكلمة (يجب) في آخر البيت الأول معناها (يخفق ويضطرب) من وجيب القلب أي خفقانه . وكلمة (يجب) في آخر البيت الثاني معناها الواجب .

ومنه قول أبي محمد الخازن :

قَوْمٌ لَو انَّهُمُو ارْتاضُوا لَمَا قَرَضُوا   أو انَّهَمْ شَعَرُوا بالنَّقْصِ ما شَعَرُوا

فكلمة (شعروا) الأولى بمعنى أَحَسُّوا ، والثانية بمعنى قالوا شِّعْراً .

ومن المماثلة بين حرفين في الجناس قولك : (قد نجح المجتهد وقد ينجح الكسول) فإن (قد) الأولى بمعنى مؤكد ، والثانية بمعنى محتمل .

٢ - الجناس المستوفي : -

وهو ما كان بين لفظين مختلفين : أي اسم وفعل أو اسم ،وحرف أو فعل وحرف .

ومن ذلك قول محمد بن عبد الله بن كناسة في رثاء ابنه الذي كان اسمه (يحيى) :

وسَمَّيْتُهُ يَحْيَى ليَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ   إلى رَدِّ أَمْرِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

فإن (يحيى) الأولى اسم ، (ويحيا) الثانية فعل .

ومنه قول شمس المعالي قابوس بن وشمكير :

وَمنْ يَسْرِ فَوْقَ الأرضِ يَطْلُبُ غَايَةً   مِن الْمَجْدُ نَسْرى فَوْقَ جُمْجُمَةِ النَّسْرِ

---

(١) كتاب سيبويه جـ ١ ص ٢٧٠ .

ومنه قول شاعر آخر :

فَـدَارِهِـمْ مـا دُمْـتَ فـي دَارِهِـمْ   وأَرْضِهِـمْ مـا دُمْـتَ فـي أَرْضِهِـمْ

فكلمة (دارِهم) الأولى فعل أمر والثانية اسم بمعنى (في بيتهم) ، وكذلك (أرضهم) الأولى فعل بمعنى اعمل على أن ترضيهم ، و(أرضِهم) الثانية اسم وهي الأرض التي لهم .

وأمَّا قول الشاعر :

عَـلاَ نَجْمُـهُ في عَـالَمِ الشِّعْـرِ فَجْـأَةً   على أَنَّـه مـا زَالَ في الشِّعْـرِ شَـادِيَـا

فإنه جِناس مستوفىً بين فعل وحرف فكلمـة (عَلاَ) الأولى فعـل ماضٍ بمعنى ارتفع ، و(على) الثانية حرف جر .

وقول الشاعر :

ولَـوْ أَنَّ وَصْـلاً عَـلَّلُوه بِـقُـرْبِـهِ   لَمَـا أَنَّ مِنْ حَمْلِ الصَّبَـابَةِ والْجَـوَى

فكلمة (أنَّ) الأولى حرف توكيد ونصب ، و(أَنَّ) الثانية فعل من الأنين .

٣ ـ جناس التركيب : ـ

وهو أن يكون اللفظان أحدهما كلمة واحدة والثاني كلمة مركبة من كلمتين فيهما حروف الكلمة الواحدة نوعاً وعدداً وترتيباً وضبطاً .

وهذا النوع ثلاثة أقسام : المتشابه والمفروق والْمَرْفُوُّ .

أما التشابه فهو أن تتشابه الكلمتان لَفْظاً وخَطًّا ، وذلك كقول الشاعر أبي الفتح البستى :

إذا مَـلِكٌ لَـمْ يَـكُـنْ ذَاهِـبَـهْ   فَـدَعْـهُ فَـدَوْلَـتُـهُ ذَاهِـبَـهْ

ففي الشطر الأول كلمة (ذاهبة) كلمة مركبة من (ذا) بمعنى صاحب ، و(هِبَة) بمعنى عطية . وفي الشطر الثاني كلمة (ذاهبة) كلمة غير مركبة ومعناها زائلة أي إذا كان هناك ملك غير جواد وغير معطاء فإن دولته زائلة .

ومنه قول الشاعر :

عَـارِضَـاهُ بمـا جَـنَـى عَـارِضَـاهُ   أَوْ دَعَـانِـي أَمُـتْ بِـمـا أَوْدَعَـانِـي

فقوله (أودعاني) الأولى إنما هي (أو) التي للعطف ، ثم (دعاني) فعل أمر بمعنى اتركاني ، وقوله (أَوْدَعَانِي) في آخر البيت ، بمعنى تركا عندي وديعةً ، ويقال في الواحد أودع وفي المثنى (أودعا) وفي الجمع (أودعوا) .

أما جناس التركيب المفروق ، فهو تشابه الكلمة المركبة مع المفردة لَفْظاً لا خطًّا . . أي أن الكلمة المركبة لا تكتب ككتابة الكلمة المفردة ، ولكنها تلفظ مثلها . . وذلك كقول عمر بن علي المطوعي : -

أميرٌ كُلُّه كَرَمٌ سَعِدْنَا ... بِأَخْذِ الْمَجْدِ مِنْهُ واقْتِبَاسِه
يُحاكي النِّيلَ حِينَ يُسَامُ نَيْلاً ... وَيَحْكِي باسِلاً في وَقْتِ بَاسِه

فنهاية البيت الأول كلمة (واقتباسه) كلمة واحدة ، وفي نهاية البيت الثاني كلمة مركبة من (وقت) و(باسه) بمعنى شدته وبطشه . فالكلمة الأولى كلمة واحدة والثانية مركبة ولا تكتب ككتابة الكلمة ولكنها تلفظ مثلها .

ومن ذلك النوع أيضاً قول الشاعر :

وإنْ أَقَرَّ عَلَى رِقٍّ أَنَامِلَهُ ... أَقَرَّ بالرِّقِّ كل الأنامِ لَهُ

فالأولى كلمة (أنامله) أي أطراف أصابعه وهي كلمة واحدة ، والثانية مركبة من (الأنام) أي الخلق ثم (له) .

ومنه قول أبي الفتح البستى :

كُلُّكُم قَدْ أَخَذَ الْجَـ ... ـامَ ولاَ جَامَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْـ ... ـجَامِ لَوْ جَامَلَنَا

فكلمة (جام لنا) في البيت الأول مركبة من جام أي الكأس ، ثم لنا ، أما البيت الثاني فإن (جاملنا) في آخره كلمة واحدة بمعنى أنه يجاملنا .

وقول عمر بن علي المطوّعي : -

لا تَعْرِضَنَّ علَى الرُّوَاةِ قَصِيدَةً ... مَا لَمْ تُبَالِغْ قَبْلُ فِي تَهْذِيبِهَا
فَمَتَى عَرَضْتَ الشِّعْرَ غَيْرَ مُهذَّبٍ ... عَدُّوهُ مِنْهُ وَسَاوِساً تَهْذِي بِهَا

فكلمة (تهذيبها) في آخر البيت الأول كلمة واحدة ، وفي آخر البيت الثاني

كلمة مركبة من (تهذي) أي تخرف و(بها) ويختلف خطها عن خط (تهذيبها) .

والتجنيس الْمَرْفُوُّ : ـ هو الذي يتكون من كلمتين إحداهـا واحدة والثـانية مكونة من لفظ وجزء منه .

وذلك كقول الحريري :

وَلاَ تَلْهُ عَنْ تَـذْكَـارِ ذَنْبِـكَ وابْكِـهِ   بِدَمْعٍ يُحَـاكـي الْمُزْنَ حَـالَ مَصَابِـه
وَمثِّـلْ لِعَيْنَيْـكَ الْحِمَـامَ وَوَقْعَـهُ   وَرَوْعَـةَ مَـلْقَـاهُ ومَـطْعَـمَ صَـابِـه

فالجناس المرفوُّ هنا بين (مصابه) في قافية البيت الأول و(صابه) في قافية البيت الثاني مع الميم التي تنتهي بها الكلمة السابقة (مطعم) وبهذا نكون قد انتهينا من أنواع وشواهد الجناس التام .

ثانياً : الجناس غير التام : ـ

وهو الجناس الـذي يحدث بين لفـظيه خـلاف في أحد الشـروط الأربعة الواجب توافرها في الجناس التام ، وهذه الشروط هي نوع الحروف ، وعددها ، وضبطها ، وترتيبها .

وينقسم الجناس غير التام إلى أنواع مختلفة حسب كل حالة من الحالات التي لم يتحقق فيها أحد الشروط الأربعة السابقة .

١ ـ عندما لا يتحقق بين اللفظين شرط الاتفاق في نوع الحروف فيشترط ألا يحدث الخلاف في أكثر من حرف واحد .

وهذا ينقسم إلى ضربين من الجناس هما :

أ ـ الجناس المضارع :

وهو الذي يكون فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج ، ويكونان إما في أول اللفظ كقول الحريري : (بَيْنِي وَبَيْنَ كِنِّي ليلٌ دَامِس وطريقٌ طامِس)[1] .

واما يكونان في وسط اللفظ . كقوله تعالى : **﴿ وهم ينهون عنه وينـأون**

---

(١) كِنِّي : أي بيتي . دامس : أي شديد الإظلام . طامس : أي معالمه مطموسة .

عنه ﴾[1] .

وإما في آخر اللفظ كقول النبي ﷺ : (الخَيْلُ معقودٌ بنواصيها الخير)[2] .

وكقول ابن هَرْمة :

وأَطْعَنُ لِلْقِرْنِ يَوْمَ الْوَغَى وأَطْعَمُ في الزَّمَنِ اللاَّحِقِ

ب ـ الجناس اللاحِق : ـ

وهو الذي يكون فيه الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج ، ويكونان أيضاً إما في أول اللفظ كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة ﴾[3] .

وكقول بعضهم (رُبَّ وَضِيٍّ غير رَضِيٍّ)[4] ، وقول الحريري : (لا أُعْطِي زِمامِي لِمَنْ يَخْفِرُ ذمامي)[5] .

وإما يكون الحرفان غير المتقاربين في وسط اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ ، وبما كُنْتُمْ تَمْرَحُون ﴾[6] .

وكقوله تعالى : ﴿ وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[7] .

وإما في آخر اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا جَاءَهُم أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ ﴾[8] .

وكقول البحتري :

هَلْ لِمَا فاتَ مِنْ تَلاقٍ تَلاَفِ أَمْ لِشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافِي

(١) الأنعام ـ بعض الآية ٢٦ .
(٢) النواصي : جمع ناصية وهي مقدم الرأس .
(٣) الهمزة ـ آية ١ .
(٤) وَضيّ : وضيء أي مشرق الوجه .
(٥) الزمام : القياد والمراد به هنا الطاعة تَجَوُّزاً يخفر ذمامي : يخون عهدي وينقضه .
(٦) غافر ـ ٥٧ .
(٧) العاديات ـ ٧ ـ ٨ .
(٨) النساء ـ بعض الآية ٨٣ .

٢ - والجناس الناقص : -

يكون باختلاف اللفظين في أعداد الحروف فقط ، ويكون ذلك على ضربين هما :

أ - هو ما كانت الزيادة فيه حرفاً واحداً في أول أحد اللفظين ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ والْتَفَّت السَّاقُ بالسَّاق ، إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق ﴾[1] فكلمة (مساق) زادت حرفاً واحداً في أولها وهو الميم ، عن كلمة (ساق) .

وإما تكون الزيادة في الوسط . كقولهم : (جَدِّي جَهْدِي) والزيادة هنا حرف الهاء في كلمة جهدي .

وإما تكون الزيادة في آخر اللفظ ، ويسمى هذا النوع (المُطَرَّف) كقول أبي تمام :

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ ... تَصُولُ بِأَسْيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

وكقول البحتري :

لَئِنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّتَ أَنْفُسٍ ... صَوَادٍ إلى تِلْكَ الْوُجُوهِ الصَّوادِفِ

وكقول البهاء زهير :

أَشْكُو وأَشْكُرُ فِعْلَهُ ... فَاعْجَبْ لِشاكٍ مِنْهُ شَاكِرْ
طَرْفِي وطَرْفُ النَّجْمِ فِيـ ... ـكَ كِلاهُمَا سَاهٍ وسَاهِرْ

ب - أن يختلف اللفظان بزيادة أكثر من حرف واحد على آخر أحد اللفظين ، ويسمى هذا النوع (الجناسُ المُذَيَّل) .

وعلى ذلك يكون (الْمُطَرَّفُ) بزيادة حرف واحد في آخر أحد اللفظين ويكون (المُذَيَّلُ) بزيادة أكثر من حرف في آخر أحد اللفظين ، فالنوعان يتفقان في الزيادة على آخر أجد اللفظين ويختلفان في عدد الحروف المزادة .

ومن أمثلة (المُذَيَّل) قو الخنساء :

---

(١) القيامة - ٢٩ - ٣٠ .

إنَّ الْبُكَاءَ هوَ الشِّفَا ءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوانِحْ[1]

ومنه قول حسان بن ثابت :

وكُنَّا مَتَى يَغْزُ النَّبِيُّ قَبِيلَةً نَصِلْ جانِبَيْهِ بالْقَنَا والْقَنَابِلِ

وقول النابغة الذبياني في الرثاء :

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ الرَّدَى بَيْنَ الصَّفَا والصَّفَائِحِ

٣ ـ ومن الجناس غير التام ، اختلاف اللفظين في هيآت الحروف فقط ، أي أن يختلف اللفظان في ضبط حروفهما من حيث الحركات والسكنات ، ويسمى هذا النوع : **الجناس المُحَرَّف** : ـ

ومثاله قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَد أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ** ﴾[2] .

ومنه قولهم : (جُبَّةُ الْبُرْدِ جُنَّةُ الْبَرْدِ) ، فالبُرْد بضم الباء هو الثوب ، والثانية (البَرْد) بفتح الباء هو ضد الْحِرِّ .

ومن الشعر قول ابن الفارض :

هَلاَّ نَهَاكَ نُهاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ لَمْ يُلْفَ غَيْرَ مُنَعَّمٍ بِشَقَاءِ

فالكلمتان (نهاك ونُهاك) الأولى مفتوحة الأول وهي فعل ، والثانية مضمومة الأول وهي اسم بمعنى عقلك . فالجناس بينهما غير تام لاختلاف هيئة الحرف الأول في إحداهما عن الثانية .

وإلى جانب الاختلاف في الحركة فقط كما سبق ، يقول القزويني[3] : وقد يكون ـ الاختلاف ـ في الحركة والسكون كقولهم : (البدعة شَرَكُ الشِّرْكِ) وكقول أبي العلاء :

والْحُسْنُ يَظْهَرُ في بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعَرِ

---

(١) الجوى : شدة الوجد من الحزن أو العشق . الجوانح : الضلوع .

(٢) الصافات : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) الإيضاح ص ٥٣٨ .

فاللفظان (الشِّعْر والشَّعَر) الأول منهما ساكن العين والثاني محركها بالفتحة .

وإذا اختلف اللفظان في ترتيب الحروف فقط ، بمعنى أن يتساوى اللفظان في نوع الحروف وعددها ويختلفان في ترتيبها ، فإن هذا النوع يسمى :

جناس الْقَلْبِ : ـ

وينقسم جناس القلب إلى أربعة أضرب[1] اثنان منها يكون التقسيم فيهما من حيث ترتيب الحروف بين اللفظين ، واثنان آخران يكون التقسيم فيهما من حيث موقع لفظَي الجناس أهُمَا متواليين أم أحدهما في أول البيت والآخر في آخره . وهذه الأضرب هي :

أ ـ قلبُ كُلّ : ـ

وهو أن تكون حروف أحد اللفظين عكس حروف اللفظ الآخر في الترتيب . وذلك كقولهم : (حُسَامُهُ فَتْحٌ لأوليائه ، حَتْفٌ لأعدائه)[2] فاللفظان (حتف وفتح) إذا قرىء أحدهما من آخره كان هو اللفظ الآخر .

ومنه قول العباس بن الأحنف :

حُسَامُكَ فِيهِ لِلأَحْبَابِ فَتْحٌ ... وَرُمْحُكَ فيه لِلأعداءِ حَتْفُ

ومنه كذلك قول ابن نباته :

قِيلَ كُلُّ الْقُلُوبِ مِنْ ... رَهَبِ الْحَرْبِ تَضْطَرِبُ
قُلْتُ هَذا تَخَرُّصٌ ... قَلْبُ بُهْرَامَ ما رَهَبُ

فاللفظان (بهرام ومارهب) فيهما قلبُ كلّ . أي أن قراءة أحدهما مقلوباً أي من آخره يؤدي إلى اللفظ الآخر نفسه .

ب ـ قلب بعض : ـ

وهو اختلاف ترتيب بعض حروف اللفظين . ويختلف عن سابقه (قلب

---

(١) قسمة القزويني إلى ضربين أساسين يشملان الأربعة الأضرب (الإيضاح)٥٤١ .

(٢) حسامة : سيفه . فتح : نصر . لأوليائه : لأنصاره . حتف : هلاك .

الكل) في أنه إذا قرىء أحدهما مقلوباً أي من آخره لا يؤدي إلى صورة اللفظ الآخر .

ومثال (قلب البعض) كما جاء في الخبر (اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْراتِنَا ، وآمِنْ رَوْعَاتِنَا) فالكلمتان (عورات وروعات) لا يتساوى ترتيبهما إذا قرئت إحداهما من آخرها ، ولكن حدث اختلاف فقط في ترتيب بعض الحروف .

ومنه قول بعضهم : (رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَمْسَكَ ما بَيْنَ فَكَّيْهِ ، وأَطْلَقَ ما بين كَفَّيْهِ)[1] .

ومنه قول أبي تمام :

بيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في   مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

فالكلمتان (صفائح وصحائف) بينهما جناس غير تام من ضرب (قلب بعض) ومنه قول المتنبي :

مُمَنَّعَةٌ مُنَعَّمَةٌ رَدَاحٌ   يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الْوُقُوعَا

جـ - قَلْبٌ مُجَنَّحٌ : -

وهو أن يقع أحد اللفظين اللذين حدث فيهما القلب في أول البيت ، والآخر في آخر البيت ، وكأن اللفظين جناحان للبيت .

ومن هذا الضرب قول الشاب الظريف :

أَسْكَرَني بالَّلَفْظِ والْمُقْلَةِ الْـ   ـكَحْلاءِ والْوَجْنَةِ والْكَاسِ
سَاقٍ يُرِيني قَلْبُهُ قَسْوَةً   وكُلُّ سَاقٍ قَلْبُه قَاسِ

فاللفظان هنا (ساقٍ) في أول البيت الثاني و(قاسٍ) في آخره فالجناس هنا من ضرب (قلب مجنح) من حيث موقعهما في الكلام كما أن بين اللفظين أيضاً جناس (قلب كلّ) لأن كلا من اللفظين إذا قُرىء عكساً تساوى مع الآخر في ترتيب حروفه .

د - مُسْتَوٍ : -

وهو أن يكون عكسُ لفظي الجناس كطردهما ، أي أن قراءتهما من اليمين

---

(١) ما بين فكيه : كناية عن اللسان . وما بين كفيه : كناية عن المال .

إلى اليسار مثل قراءتهما من اليسار إلى اليمين ، وقد كثر هذا النوع في المقامات

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ في فَلَك ﴾ و﴿ رَبَّكَ فَكَبِّر ﴾ .

ومنه قول الشاعر :

لَيْلٌ أَضَاءَ هِلالُهُ أَنَّى يُضِيءُ بِكَوْكَب

فكل كلمة في البيت يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار وبالعكس .

ومنه قول آخر :

لَبِقٌ أَقْبَلَ فِيهِ هَيَفُ كُلُّ ما أَمْلِكُ إنْ غَنَّى هِبَه

فمن الممكن هنا أن نقرأ عكساً وطرداً كُلّاً من الكلمات (لبق أقبل) و(فيه هيف) و(كل ما أملك) .

وفيما تَقَدَّمَ من أنواع الجناس غَنَاء ، غير أن استخدام الجناس لكي يكون مقبولاً مؤدياً ما يراد منه ، فلا بد أن (يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق المتكلم نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حِوَلا .

ومن ها هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه)[1] .

٢ ـ رد العجز على الصدر : ـ

وهذا النوع من المحسنات اللفظية سماه ابن المعتز (رد أعجاز الكلام على صدورها) وهو أحد فنون البديع الخمسة الكبرى عنده .

أما تسميته (رد العجز على الصدر) أو (التصدير) فمن عمل المتأخرين من علماء البلاغة تسهيلاً وتخفيفاً على المتلقى .

وكما هو واضح من اسم هذا النوع البديعي ، فإنه يتناول موضع لفظين بينهما علاقة خاصة ، أحد اللفظين يكون موقعه في النثر في آخر الفقرة والآخر في أولها ، وفي الشعر يكون أحد اللفظين في آخر البيت واللفظ الثاني يكون إما في صدر المصراع الأول أو في حشوه أو في آخره ، أو في صدر المصراع الثاني .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧ .

هذا من حيث موقع اللفظين في النثر وفي الشعر . أما من حيث العلاقة بين اللفظين فهي إما أن يكون اللفظان (مكررين) أي متفقين لفظاً ومعنى ، وإما أن يكونا (متجانسين) أي متفقين في اللفظ دون المعنى ، أو يكونا (ملحقين بالمتجانسين) أي يجمعهما الاشتقاق أو شبهه .

ولتفسير ذلك نتناول كل ضرب على حدة حسب تقسيم القزويني[1] :

أولاً في النثر : ـ

١ ـ اللفظان المكرران ، وأحدهما في أول الفقرة والثاني في آخرها ، وذلك كقوله تعالى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[2] .

٢ ـ اللفظان المتجانسان ، وهما المتفقان في اللفظ دون المعنى ، كقولهم : (سَائِلُ اللَّئيمِ يَرْجِعُ ودَمُهُ سَائِل) . فكلمة (سائل) في أول العبارة اسم فاعل من الفعل سأل يسأل أي طلب . و(سائل الثانية من الفعل سال يسيل ، أي : الذي يسأل اللئيم يعود ودمه يسيل .

٣ ـ اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق وشبهه . كقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وأَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

٤ ـ اللفظان اللذان يجمعهما شبه الاشتقاق . كقوله تعالى : ﴿ قالَ : إني لِعَمِلِكُم من الْقَالِينَ ﴾[4] .

ثانياً : في الشعر : ـ

١ ـ اللفظان المكرران المتفقان لفظاً ومعنى :

أ ـ ويقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول وذلك

---

(١) الإيضاح ص ٥٤٣ ـ ٥٤٧ .
(٢) الأحزاب ـ بعض الآية ٣٧ .
(٣) نوح ـ بعض الآية ١٠ .
(٤) الشعراء ـ ١٦٨ .

كقول المغيرة بن عبد الله الملقب بالأقيشر :

سَـرِيعٌ إلى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ ... ولَيْسَ إلى داعي النَّـدَى بِسَـرِيـع

وقول الآخر:

تَمَنَّتْ سُلَيْمَى أَنْ أموتَ صَبَابَةً ... وأهْـوَنُ شَيءٍ عِنْـدَنَـا مَـا تَـمنَّـ

وقول شاعر آخر:

سُكْرانِ : سُكْرُ هَوىً، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ... أَنَّى يُفِيقُ فَتىً بِـهِ سُكْـرَانِ؟!

ب ـ ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت ، والثاني في حشو المصراع الأول ، وذلك كقول الصِّمَّة القشيري :

تَمَتَّـعْ مِـنْ شَميـمِ عَـرارِ نَـجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ الْـعَشِيَّـةِ مِـنْ عَـرَارِ

جـ ـ ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت والثاني في آخر المصـراع الأول ، كقول أبي تمام :

ومَنْ كـانَ بالْبِيضِ الْكـواعِبِ مُغْرَمـاً ... فمَـا زِلْتَ بالبيضِ القَـواضِبِ مُغْرَمَـا

د ـ ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت والثاني في صدر المصـراع الثاني ، وذلك كقول ذي الرُّمَّة :

وإن لـمْ يكُـنْ إلاَّ مُـعَـرَّجَ سـاعَـةٍ ... قليـلاً ، فَـإنِّى نـافِـعٌ لِي قَليلُهَـا

٢ ـ اللفظان المتجانسان : أي المتفقان لفظاً لا معنى :

أ ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول ، كقول القاضي الأرَّجاني :

دَعَـانِي مِنْ مَـلامِـكُـمَـا سَـفَـاهـاً ... فَـدَاعِي الشَّـوْقِ قَبْلَكُـمَـا دَعَـانِي

فاللفظان (دعاني ودعاني) في أول البيت وآخره اتفقا في اللفظ واختلفا في المعنى ، إذْ (دعاني) الأولى بمعنى اتركاني ، و(دعاني) الثانية بمعنى طلبني .

ب ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثـاني في حشو المصـراع الأول . كقول الثعالبي :

وإذا الْبَـلابِـلُ أَفْصَحَتْ بِـلُغَـاتِهَـا ... فـانْفِ الْبَلابِـلَ بـاحْتِسـاءِ بـلابـلِ [1]

(١) البلابل الأولى : جمع بلبل ، والثانية : جمع بَلْبَال وهو شدة الحزن . وبلابل الثالثة الأخيرة في البيت : جمع بلبل وهو قناة إبريق الخمر ويقصد ما بداخل الإبريق ، وانْفِ : أي أزِحْ وأبْعِدْ .

جـ ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول : كقول الحريري :

فَمْشَغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي ... ومَفْتُونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَانِي

فكلمة (المثاني) في آخر المصراع الأول بمعنى القرآن ، و(المثانى) في آخر البيت بمعنى الأوتار أو المزامير .

د ـ اللفظان المتجانسان اللذان يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الثاني ، كقول القاضي الأرَّجاني :

أمَّلْتُهُمْ ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ ... فَلاَحَ لِي أنْ لَيْسَ فِيهِمْ فَلاَحُ

فكلمة (فلاح) التي في صدر المصراع الثاني مكونة من الفاء ثم الفعل (لاح) بمعنى بدا وظهر ، وكلمة (فلاح) في آخر البيت اسم بمعنى نجاح وفوز .

٣ ـ اللفظان الملحقان بالمتجانسين للاشتقاق :

أ ـ يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول ، كقول البحتري :

ضَرَائِبُ أَبْدَعْتَهَا في السَّمَاحِ ... فَلَسْنَا نَرَى لَكَ فِيهَا ضَرِيبَا

فالكلمتان (ضرائب) و(ضريب) الأولى جمع ضريبة وهي السجية ، والثانية بمعنى نظير أو مثيل .

ب ـ يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأول . كقول امرىء القيس :

إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَه ... فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

فالكلمتان (يَخْزُن) و(خَزَّان) الأولى فعل والثانية صيغة مبالغة .

جـ ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول . كقول عبد الله بن محمد بن عيينة :

فَدَعِ الْوَعِيدَ ، فما وَعِيدُكَ ضَائِرِي ... أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ؟!

الكلمتان (ضائر) و(يضير) بمعنى واحد ، يجمعهما الاشتقاق فالأولى

اسم فاعل والثانية فعل مضارع .

د ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في أول المصراع الثاني ، كقول أبي تمام :

وقَدْ كَانَتِ الْبِيضُ الْقَواضِبُ في الْوَغى بَــوَاتِــرَ فَهْيَ الآنَ مِـنْ بَعْــدِهِ بُـتْــرُ

الكلمتان (بَوَاتِر) و(بُتْر) يرجعان إلى اشتقاق واحد .

٤ ـ اللفظان الملحقان بالمتجانسين لشبه الاشتقاق :

أ ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول كقول الحريري :

ولاَحَ يَلْحَى عَلَى جَرْيِ الْعَنَـانِ إلى مَلْهىً فَسُحْقـاً لـه من لائِـحٍ لاحِ

والكلمتان هما (لاحَ) الأولى فعل ، و(لاحِ) الثانية اسم فاعل من لحاه أي أبعده .

ب ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في حشو المصراع الأول كقول أبي العلاء :

لَـوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإِحْسَـانِ زُرْتُكُمُـو والْعَـذْبُ يُهْجَرُ لِـلإِفراطِ في الْخَصَـرِ

(اختصر) بمعنى أوْجَزَ أو قَلَّلَ و(الخَصَر) اسم بمعنى البَرْد ، يجمعهما شبه الاشتقاق .

جـ ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول ، كقول الحريري :

ومُـضْـطَلِعٍ بتَـلْخِيصِ الْـمَعَــانـي ومُــطَّلِعٍ إلــى تَـخْـلِيصِ عَــانِــي

فكلمة (المعاني) جمع معنى ، والثانية (عانِي) اسم فاعل بمعنى أسير أو متعب والكلمتان يجمعهما شبه الاشتقاق .

د ـ يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الثاني كقول الشاعر :

لَعَمْـرِي لَقَـدْ كَــانَ الثُّـرَيَّـا مَكَـانَــهُ ثَرَاءً ، فَأَضْحَى الآنَ مَثْـواهُ في الثَّرَى

الكلمتان (ثراء) و(الثرى) الأولى بمعنى الغِنى والثروة ، والثانية بمعنى

التراب . وبينهما علاقة شبه الاشتقاق .

٣ ـ لزوم ما لا يلزم : ـ

هو ما عَرَّفه الخطيب القزويني بقوله[١] : (وهو أن يجيء قبل حرف الرَّوِيِّ وما في معناه من الفاصلة ما ليس يلازم في مذهب السجع) وهذا اللون البديعي يكون في النثر وفي الشعر ، وهو في القرآن قليل ومَثَّلَ له القزويني من القرآن بقوله تعالى : ﴿ **فإذا هُمْ مُبْصِرونَ ، وإخْوانُهُم يَمُدُّونَهُمْ في الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرْونَ** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وأَمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ** ﴾[٣] .

ومن أمثلته في النثر قول بديع الزمان الهمذاني في مقامته الجاحظية : (فهلموا إلى كلامه فهو بَعِيدُ الإشارات ، قليلُ الاستعارات ، قريبُ العبارات منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة مسموعة)[٤] .

فالكاتب هنا ألزم نفسه بما هو غير لازم في السجع حين استعمل في الفاصلة التاء والألف والراء ، وبعدها التزم الهاء واللام والميم ، ثم بعد ذلك الهاء والعين والواو .

ويأتي في الشعر بالتزام حرف أو أكثر قبل حرف الرَّوِيِّ ، ومن ذلك قول عبد الله بن الزبير الأسدى : .

سَأَشْكُرُ عَمْراً إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتي ... أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هي جَلَّتِ
فَتىً غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِه ... ولا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

---

(١) الإيضاح ص ٥٥٣ .
(٢) الأعراف ـ بعض الآية ٢٠١ والآية ٢٠٢ .
(٣) الضحى ـ ٩ ـ ١٠
(٤) مقامات بديع الزمان ص ٧٥ .

فالالتزام في الأبيات السابقة حدث في اللام المشددة قبل حرف الرَّوِيّ وهو التاء .

ومنه قول الشاعر :

يَقُـولُـونَ : فِي الْبُسْتَـانِ لِلْعَيْنِ لَـذَّةٌ ... وَفِي الْخَمْـرِ والْماءِ الَّـذِي غَيْـرُ آسِنِ
إذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْمَحَـاسِنَ كُلَّهَـا ... فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى جَمِيـعُ الْمَحاسِنِ

وقد التزم الشاعر هنا النون وقبلها السين والألف .

ولأبي العلاء المعري ديوان كامل من الشعر في هذا النوع البديعي سماه (اللزوميات) ومنه قوله :

أَرَى الـدُّنْيَـا ومـا وُصِـفَـتْ بِـبِـرٍّ ... إذَا أَغْـنَـتْ فَـقِـيـراً أَرْهَـقَـتْـهُ
إذا خُـشِـيَـتْ لِـشَـرٍّ عَـجَّـلَتْـهُ ... وإنْ رُجِـيَـتْ لِـخَـيْـرٍ عَـوَّقَـتْـهُ
حَـيَـاةٌ كَـالْحُـبَـالَـةِ ذَاتُ مَـكْـرٍ ... ونَـفْسُ الْـمَـرْءِ صَـيْـداً أَعْـلَقَـتْـهُ
فَـلاَ يُـخْـدَعْ بِـحِـيـلَتِـهَـا أَرِيـبٌ ... وإنْ هِـيَ سَـوَّرَتْـهُ ونَـطَّقَـتْـهُ
أَذَاقَـتْـهُ جَـنِـيًّـا مِـنْ جَـنَـاهَـا ... وَصَـدَّتْ فَـاهُ عَـمَّـا ذَوَّقَـتْـهُ

فاللزوم في هذه الأبيات جاء في الهاء والتاء والقاف .

وهذا الالتزام من الشاعر بحرف أو أكثر قبل حرف الرَّوِيّ يجعل مهمته صعبة وبخاصة عندما تطول القصيدة ، وليس الشاعر ملزماً بهذا بل يستطيع عدم الالتزام به ، أي أن يغير وينوع فيما قبل حرف الرَّوِيّ . فمثلاً لو التزم الشاعر بحرف الدال قبل حرف الروى في مثل قوله (تخدم وتقدم وتعدم) فإنه يستطيع عدم الالتزام في مثل (تسلم ، وتنعم وتفهم . . الخ) .

وهذا النوع البديعي سواء في الشعر أم في النثر لا يكون حسناً مقبولاً إلا إذا جاء عفو الخاطر غير متصنع ولا متكلف حتى لا يطلب الشاعر به الإعنات لنفسه .

وممن أعنتوا أنفسهم بالتزام ما لا يلزم ، الشعراء المتأخرون ، ومنهم من عمد إليه عن قصد إظهاراً لمقدرته ، واستعراضاً لمحصوله اللغوي . ومنهم أبو العلاء المعري .

٤ - السجع : -

السجع في اللغة هو : الكلام المُقَفَّى ، أو موالاة الكلام على رَوِيٍّ واحد ، وجمعه أسجاع وأساجيع ، وسَجَعَ الرجل كلامه من باب قطع ونفع ، وسَجَّعَه وسَجَّعَ فيه بالتشديد - كما يقال : نظمه : إذا جعل له فواصل كقوافي الشعر ولم يكن موزوناً[1] .

واشتقاق السجع من سجع الناقة والحمامة ، وهو ترديد صوتهما على وجه واحد ، وإنما شبه بذلك لتقارب فواصله .

وسبب التسمية يرجع إلى ما في الكلام المسجوع من حلاوة التنغيم ، وجمال الموسيقية ، فأشبهَ سجعَ الحمام .

أما السجع في اصطلاح البلغاء فإننا نذكر منه قول المُبَرِّد : (السجع من الكلام : أن تأتلف أواخره على نسق كما تؤلف القوافي)[2] وقول الرماني : (تكلف القافية من غير تأدية الوزن)[3] .

وقريب منه تعريف القلقشندي : (هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن)[4] وقول الخطيب القزويني وشبيه به تعريف ابن الأثير : (هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا معنى قول السكاكي : الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر)[5] .

وقد رفض الباقلاني (المتوفي ٤٠٤ هـ) أن يكون في القرآن سجعٌ وردَّ على من أثبتوه في القرآن بقوله : (لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع مُعْجِز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه

---

(١) الصحاح للجوهري - القاموس المحيط مادة (سجع) .
(٢) الكامل - شرح المرصفي - جـ ٥ ص ٢٤١ .
(٣) نهاية الإيجاز للرازي ص ٣٤ .
(٤) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٢٦٩ .
(٥) الإيضاح ص ٥٤٧ .

الكُهَّانُ من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر ، وقد روى أن النبي ﷺ قال للذين جاءوا وكلموه في شأن الجنين ، كيف نَدِى من لا شَرِبَ ولا أكل ولا صاح فاسْتَهَل ، أليس دمه قد يطل ، فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ وفي بعضها ، أَسَجْعاً كسجع الكهان . فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالته ، ثم قال : والذي يقدرونه أنه سجع فهو وَهْم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، ثم قال : إنه لو كان سجعاً لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر ، ثم قال : ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتَها على نسق واحد ورَوِيٍّ غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ، ولو بنى عليه لكان الشعر مسجعاً لأن رَوِيَّه يتفق ولا يختلف . ثم قال : وأما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف ، فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك إنما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل ، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام ولا تناسي)[1] .

وممن أجازوا السجع في القرآن : أبو هلال العسكري وابن سنان ، والتنوخي ، وابن الأثير يقول[2] : (فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبتَ إليه ، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قلت في الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتي كلها مسجوعة ، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب) .

وإذا كان ابن الأثير قد اشتط في رأيه هذا ، فإن العلوى صاحب الطراز

---

(١) راجع إعجاز القرآن من ص ٥٧ - ٦٥ .

(٢) المثل السائر ص ٧٦ .

يعرض للمذهبين، مذهب المثبتين ومذهب النافين للسجع في القرآن أو مذهب المجيزين ومذهب الكارهين ، ويسوق لكل مذهب أدلته ، ومال هو إلى جواز السجع في القرآن ، وأوضح أنه هو المعوّل عليه عند علماء البيان[1] .

وقد استند المجيزون للسجع في القرآن إلى أن السجع يحسن موقعه في الأذن ، وتأثيره في النفس ، وسحره للعقل ، وسهولته في الحفظ .

ولكن من المستحسن أن نسمى ما ورد في القرآن من هذا القبيل فواصل ، ذلك حتى لا يشركه قول آخر في هذا المصطلح الذي اتخذه أصحابه من قوله تعالى : (كتاب فُصِّلتْ آياتُه)[2] .

ومن أمثلة السجع في النثر ما وصف به عبد الله بن عباس أبا بكر الصديق رضي الله عنهما ، بقوله : (رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تاليا ، وعن المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ، وسادهم زهداً وعفافاً)[3] .

ومنه أيضاً خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ : يقول فيها : (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، ومن بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان)[4] .

أقسام السجع : ـ

ينقسم السجع في الكلام إلى أربعة أضرب هي : المُطَرَّف ، والمُرَصَّع ، والمُتوازي ، والمُشَطَّر .

١ ـ المُطَرَّف : ـ

وهو السجع الذي تتفق فيه الفاصلتان أو الفواصل ، أو القرينتان في

---

(١) راجع الطراز ص ١٩٣ .

(٢) فصلت : ٤١ .

(٣) جمهرة خطب العرب جـ ٢ ص ٨٣ .

(٤) جمهرة خطب العرب جـ ٢ ص ٣٠٠ .

الرَّوِيِّ ، وتختلف في الوزن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً ، وقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾[١] .

ومن السجع ما يأتي في الشعر ، ومثال ذلك قول أبي تمام :

تَجَلَّى بـه رُشْدِي ، وأثْـرَتْ بِهِ يَـدِي   وفَاضَ به ثِمْدِي ، وأوْرَى به زَنْدِي[٢]

٢ - الترصيع : -

وهو أن تقابـل كل لفـظة من فقرة النثـر أو صدر البيت لفـظة على وزنها ورويِّها . وذلك مثل قول الحريري في المقامات : (فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه) .

ومنه قول أبي الفضل الهمداني : (إنَّ بعـد الكدر صفـوا ، وبعد المـطر صحوا) . ومنه قول أبي الفتح البستي : (ليكن إقـدامك تـوكلا ، وإحجـامك تأمُّلا) .

ومن أمثلته في الشعر قول أبي فراس الحمداني :

وأَفْعـالُـنَـا لـلرَّاغـبـيـنَ كَـرامـةٌ   وأَمْـوالُـنَـا لـلطَّالِـبـيـنَ نِـهـابُ

وقول ابن نبيه الشاعر :

فَحَـرِيقُ جَمْـرةِ سَيْفِـهِ لِلْمُعْتَـدِي   وَرَحِيقُ خَمْـرةِ سَيْبِـه لِلْمُعْتَـفِـي

فالترصيع وقع هنا في جميع ألفاظ البيت فكلمة (حريق) تقابلها (رحيق) و(جمرة) تقابلها (خمرة) ، و(سيفه) تقابلهـا (سيبه) و(المعتـدى) تقابلهـا (المعتفى) .

٣ - المتوازي : -

وفيه تتفق اللفظة الأخيرة من الفاصلة أو القرينة (أي الفقرة) مع نظيرتها في الوزن والرَّويّ (أو القافية) وذلك كقوله تعالى :

﴿ فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾[٣] .

---

(١) نوح - ١٣ .

(٢) تجلّى به رشدي : أي ما تأملته فيه قد تحقق ، ثِمْدى : الماء القليل والمقصود به هنا المال القليل .

(٣) الغاشية - ١٣ - ١٤ .

ومنه دعاء النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إني أَدْرَأُ بِكَ في نُحُورِهِمْ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ) .

٤ ـ المشطور : (أو التشطير)

وهو أن يكون في كل شطر من البيت قافيتان مختلفتان عن قافية الشطر الثاني ، وهذا النوع من الجناس خاص بالشعر .

ومنه قول أبي تمام :

تَدْبيرُ مُعْتصمٍ باللهِ ، مُنْتَقِمٍ لله ، مُرْتَغِبٍ في الله ، مُرْتَقِب

ففي الشطر الأول نجد القافيتين في (معتصم ومنتقم) وهما مخالفتان للقافية في الشطر الثاني في (مرتغب ومرتقب) ، فالسجع في الشطر الأول قافيته ميمية ، وفي الثاني قافيته بائية .

شرط حسن السجع : ـ

١ ـ أحسن السجع هو الذي تتساوى فيه القرائن (أي الفقرات) كقوله تعالى : ﴿ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليَتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾[2] .

٢ ـ أن تطول القرينة (الفقرة) الثانية عن الأولى ، على ألاَّ يمتد طولها كثيراً حتى لا يبعد على السامع وجود القافية ، فيقل تأثير السجع ، وتضيع حلاوته .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ والنَّجْمِ إذا هَوَى ، ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ ومَا غَوَى ﴾[3] فالآية الأولى ثلاث كلمات ، والثانية خمس كلمات وهي أطول من الأولى وطولها لم يبعد بالسامع عن الفاصلة .

٣ ـ أن تطول في السجع فقرته الثالثة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذُوه ،

---

(١) الواقعة ـ ٢٨ ـ ٣٠ .

(٢) الضحى ـ ٩ ـ ١٠ .

(٣) النجم ـ ١ ـ ٢ .

فَغُلُّوه ، ثم الْجحيمَ صَلُّوه ﴾[1] ، وكقـول أبي الفضل الميكـالي : (لَـهُ الأَمْـرُ المُطاعُ ، والشَّرَفُ الْيَفَاعُ ، والعِرْضُ الْمَصُونُ والْمالُ المُضَاعُ)[2] .

وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ والْعَصْرِ ، إنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلا الَّذينَ آمنوا وعملُوا الصَّالحاتِ وتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ ﴾[3] .

٤ - ولا ينبغي أن تلى قرينةٌ قرينةً أقصرُ منها كثيراً ، لأن السجع إذا استوفى أَمَدَهُ من القرينة الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصرَ منها كثيراً ، يكون كالشيء المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، ويشهد الذوق بذلك ، ويقضى بصحته[4] .

السجع من حيث الطول والقصر : -

قد يجىء السجع قصيراً أو طويلاً أو متوسطاً .

والقصير : الذي تتألف فيه كل فاصلة أو فقرة من أقل الألفاظ هو أحسن السجع وأقربه من السمع ، وهـو كذلـك أصعب أنواعـه . ومثال فـواصله قولـه تعالى : ﴿ والمُرْسَلاتِ عَرْفًا ، فالْعَاصِفاتِ عَرْقًا ﴾[5] ومنه قوله تعالى : ﴿ يَأيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وثيابَكَ فَطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾[6] .

والطويل : هو الذي تطول فواصله (أو قرائنه أو فقراته) بأن تتألف كـل واحدة منها من عدة ألفاظ قد تصل إلى خمس عشرة لفظة .

ومثال فواصله قوله تعالى : ﴿ إذ يُريكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قَليلاً ، ولو أَرَاكَهُمْ كَثيراً لَفَشِلْتُمْ ولَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ ولَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إنَّه عَليمٌ بـذاتِ الصُّدُورِ ، وإذْ يُريكَهُمُ إذ الْتَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ، ويُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْـراً كانَ

---

(١) الحاقة - ٣٠ - ٣١ .

(٢) اليفاع : العالي المرتفع .

(٣) سورة العصر .

(٤) راجع الإيضاح ص ٥٤٨ .

(٥) المُرْسَلات - ١ - ٢ .

(٦) الْمُدَّثِّر - ١ - ٥ .

مَفْعُولاً ، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ ﴾[1] .

أما المتوسط : فكقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وإن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرّ ﴾[2] .

ومنه قول بديع الزمان الهمذاني من كتاب له إلى ابن فريقون[3] : (كتابي والبحرُ وإن لم أرَه ، فقد سمعتُ خَبَرَه ، والليث وإن لم ألْقه ، تصورت خَلْقه ، والمَلِكُ العادلُ وإن لم أكن لَقِيتُه ، فقد لَقِيَنِي صِيتُه ، ومن رأى من السيف أثَرَه ، فقد رأى أكْثَرَه) .

بناء الأسجاع : ـ

وفواصل السجع أو أعجاز فقراته لا بد أن تكون ساكنة موقوفاً عليها ، إذ الغرض أن يزاوج بينها ، ولا تتحقق المزاوجة في كل صورة إلا بالوقف فلو أن الوقف لم يتحقق في قولهم : (ما أبْعَدَ ما فات ، وما أقْرَبَ ما هو آت) فإنَّ السجع بالتالي لا يتحقق ، إذ لا بد من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب فيفوت الغرض من السجع .

٥ ـ الموازنة : ـ

ومن أنواع المحسنات اللفظية (الموازنة) وهي أن تتساوى الفاصلتان أو القرينتان في الوزن دون التقفية ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ونَمَارِقُ مَصْفُوفَة ، وزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[4] .

وإذا كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ ، أو أكثر ما في إحداهما مثل ما يقابله من القرينة الأخرى في الوزن سُمِّي ذلك بالمماثلة كقوله تعالى : ﴿ وآتيناها الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وهَدَيْنَاهُما الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[5] .

---

(١) الأنفال ـ ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) القمر ـ ١ ـ ٢ .

(٣) رسائل البديع ص ٣٥٨ بيروت .

(٤) الغاشية ١٥ ـ ١٦ . النمارق : الوسائد الصغيرة . الزرابي : البسط الفاخرة . المبثوثة : المفروشة .

(٥) الصافات ـ ١٧ ـ ١٨ .

ويُعَرِّفُ ابن الأثير الموازنة موضحاً علاقتها بالسجع في قوله :

(وهذا النوع من الكلام أخو السجع في المعادلة دون المماثلة ، لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال ، هي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد . وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ، ولا تَمَاثُلَ في فواصلها ، فيقال إذن : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً ، وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة)[1] .

وتكون الموازنة في النثر وفي الشعر ، ومن أمثلة الموازنة في الشعر قول أبي تمام :

مَهَا الْوَحْشِ إلاَّ أَنَّ هَاتَا أَوانِسٌ   قَنَا الْخطِّ ، إلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوابِلُ

فالموازنة في البيت تَمَّتْ بين كل لفظة وما يقابلها في كل من المصراعين ما عدا لفظتي (هاتا وتلك) .

ومنها قول أبي تمام أيضاً[2] :

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيكَ مَطْعَماً   وأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا

ومنها قول ربيعة بن ذؤابة :

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُـمْ   بِعتيبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهابِ

بأشَدِّهِمْ بَأْساً عَلَى أَصْحَابِهِ   وأَعَزِّهِمْ فَقْداً عَلَى الأَصْحَابِ

ونكتفي من المحسنات اللفظية بتلك الأنواع الخمسة التي أوجزنا فيها القول ونستعير قول الخطيب القزويني في ختام الحديث عن المحسنات اللفظيـة مبيناً شرط الحسن فيها قائلاً : (وأصل الحسن في جميع ذلك ـ أعنى القسم اللفظي ـ كما قال الشيخ عبد القاهر ، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني فإنَّ المعاني إذا أُرسلت على سجيتها ، وتُركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلافَ ذلك كان كما قال أبو الطيب :

---

(١) المثل السائر ص ١١١ .

(٢) نسبه القزويني للبحتري ـ الإيضاح ص ٥٥٢ .

إذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِياتِها　　وأَعْضَائِهَا ، فالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ[١]

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حَملَ صاحبَه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع على أن ينسى أنه يتكلم ليُفْهَم ، ويقول لِيُبين ، ويُخَيَّل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت ، فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء)[٢] .

(١) شياتها : أوضاحها وعلاماتها من الألوان المخالفة للونها الأصلي والضمير للخيل التي يصفها .

(٢) الإيضاح ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإيضاح

في علوم البلاغة

للإمام الخطيب القزويني

٦٦٦ – ٧٣٩ هـ

الجزء الأول

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي



الفصل الثـاني

مواضع ينبغي للبليغ التأنق فيها

٢٩٧ ـ ينبغي للمتكلم أن يتأنّق في ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذَب لفظاً ، وأحسنَ سَبْكاً ، وأصحَّ معنىً .

الابتداء

٢٩٨ ـ الأول : الابتداء ، لأنه أوّل ما يَقْرَع السمع ، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام ، فوعَى جميعَه ؛ وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورَفَضَه وإن كان في غاية الحسن .

فمن الابتداءات المختارة قولُ امْرِىء القيس :

٦٨٦ ـ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ »(١)

وقول النابغة :

٦٨٧ ـ كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ
ولَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ(٢)

وقول أبي الطيب :

٦٨٨ ـ أَتَظُنُّنِي من زَلَّةٍ أَتَعَتَّبُ ؟ !
قَلْبِي أَرَقُّ عليكَ مِمَّا تَحْسَبُ(٣)

---

(١) عجزه : « بسقط اللوى بين الدخول فحومل » قفا : طلب للوقوف من رفيقه . اللوى : الرمل الملتوي المعوج . وسقطه : منقطعه ومنتهاه . الدخول وحومل : مكانان .

(٢) كليني : دعيني واتركيني . ناصب : متعب . أقاسيه : أتحمله وأعاني قسوته :

(٣) زلة : هفوة . أتعتب : ألوم .

وقوله :

٦٨٩ – أَرِيقُكِ ، أمْ ماءُ الغَمَامَةِ ، أمْ خَمْرُ؟
بِفِيَّ بَرُودٌ ، وَهْوَ في كَبدي جَمْرُ(١)

وقوله :

٦٩٠ – فراقٌ ، ومن فارقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ
وأمٌّ ، ومَنْ يَمَّتْ خَيْرُ مُيَمَّمِ(٢)

وقوله :

٦٩١ – أتُراهـا لِكَثْـرَةِ العشّـاقِ
تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المآقي ؟ (٣)

وقول الآخر :

٦٩٢ – زَمُّوا الجِمالَ ، فقُلْ لِلعاذِلِ الجاني :
لا عاصِمَ اليومَ مِنْ مِدْرارِ أجْفاني(٤)

٢٩٩ – وينبغي أن يُجْتَنَبَ في المديح ما يُتطيَّرُ به ؛ فإنه قد يَتفاءَل به الممدوحُ أو بعضُ الحاضرين، كما رُوِيَ أن ذا الرُّمَّةِ أنشد هشامَ بن عبد الملك قصيدتَه البائيةَ :

---

(١) بفيّ : بفمي . برود : بارد ، يقول : ريقك بارد لذيذ بفمي، وهو كنار في كبدي ؛ إذ أنه يهيج حبي. وفي الشطر الأول تجاهل العارف، وتشبيهان ضمنيان

(٢) غير مذمم : غير مذموم ولا معيب . أم : قصد .

(٣) أتراها : أتظنها . تحسب : تظن . خلقة : فطرة وطبيعة . المآقي : مجاري العيون ، واحده مؤق بهمز العين ، وبتسهيلها .

(٤) زموا الجمال : شدوا عليها الرحال . لا عاصم : لا واقي . مدرار أجفاني : دموعي الغزيرة السيالة .

٦٩٣ — * ما بالُ عينِكَ منها الماء ينْسكِبُ ؟ ! *(١)

فقال هشام : بل عينُك .

ويقال : إن ابن مُقاتِلٍ الضرير أنشد الداعيَ العَلَويَّ قصيدته التي أولُها :

٦٩٤ — * مَوْعِدُ أحْبابِكَ بالفُرْقةِ غَدْ *(٢)

فقال له الداعي : (بَلْ) موعد أحبابك ، ولك المثل السُّوء .

ورُوِيَ أيضاً أنه دخل عليه في يوم مِهْرَجان وأنشد :

٦٩٥ — لا تَقُلْ : بُشْرَى ، ولكن بُشْرَيَان
غُرَّةُ الدَّاعِي ، ويومُ المِهْرَجان (٣)

فتطيَّر به ، وقال : أعمى يبتدىء بهذا يوم المهرجان ؟ ! وقيل بَطَحَه وضربه خمسين عَصاً ، وقال : إصلاحُ أدبِه أبلغ في ثوابه .

ترك ما يتشاءم به

وقيل : لما بَنَى المُعْتَصِمُ بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه ؛ أنشده إسحاق الموصِليُّ :

٦٩٦ — يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى ، ومَحَــاكِ
يا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أبْلاكِ ؟(٤)

---

(١) بقيته : كأنه من كُلَى مَفرِيَّة سَرِب * ينسكب : ينصب . كلى : اسم جنس ، واحدته كلية بضم أوله ، وهي العضو المعروف في حشا الإنسان فوق صلبه . مفرية : مقطعة مشققة . سَرِب : سائل .

(٢) البيت مطلع أرجوزة . ابن مقاتل : هو نصر بن نصر الحلواني . والداعي هو محمد بن زيد الحسني صاحب طبرستان .

(٣) الغرة : بياض في الجبهة ، ومراده الوجه ، جعله غرة كله . المهرجان : عيد فارسي يكون أول الخريف . (٤) البلى : القدم . أبلاك : صيرك بالية .

فتطيَّر المعتصم بهذا الابتداء ، وأمر بهدم القصر .

ومن أراد ذِكْرَ الدِّيار والأطلال في مديح فلْيَقُل مثل قول القُطاميِّ :

٦٩٧ — * إنا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ *(١)

أو مثل قول أَشْجَعَ السُّلَمِيِّ :

٦٩٨ — قَصْرٌ عليه تَحِيَّةٌ وسَلامُ
خَلَعَتْ عليه جَمَالَها الأيَّامُ(٢)

أحسن الابتداءات

٣٠٠ — وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، ويُسَمَّى بَراعَةَ الاستهلال ، كقول أبي تمام يُهَنِّئُ المعتصم بالله بفتح عَمُّورِيَّةَ ، وكان أهلُ التنجيم زعموا أنها لاتفتح في ذلك الوقت :

٦٩٩ — السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ(٣)
بِيضُ الصَّفَائِحِ ، لا سُودُ الصَّحائِفِ ، في
مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقول أبي محمد الخازن يهنِّىء ابن عبّادٍ بمولود لبنته :

---

(١) بقيته : * وإن بليت ، وإن طالت بك الطيل * الطلل : الأثر الشاخص من آثار الديار . الطيل : آماد الدهر ، واحدها طيلة . والقطامي يعرف بالشرقي واسمه عمير بن شييم .

(٢) خلعت عليه جمالها : ألبسته جمالها وكسته به .

(٣) حد السيف : شفرته وجانبه الماضي . الحد : الفاصل . بيض الصفائح : السيوف . سود الصحائف : الرسائل والكتب . من السيف : صلبه .. جلاء الشك : كشفه وإذهابه .

٧٠٠ — بُشْرَى ، فقد أنْجزَ الإقبالُ ما وَعَدا
وكوكَبُ المجدِ في أُفْقِ العُلا صَعَدا(١)

وقول الآخر :

٧٠١ — أبْشِرْ ؛ فقد جاء ما تريد
أبـاد أعـداءك المُبيـدُ(٢)

وكقول أبي الفرج السَّاوِيِّ يرثي بعضَ الملوك من آل بُوَيْه — أظنُّه فخرَ الدولة — :

٧٠٢ — هيَ الدنيا تقول بمِلْء فيها
حَذارِ حَذارِ من بَطْشي وفَتْكي(٣)

وكذا قول أبي الطيب يرثي أمَّ سيف الدولة :

٧٠٣ — نُعِدُّ المشْرَفيّة والعَوَالي وتَقْتُلُنا المَنُونُ بلا قِتال (٤)
ونرْتبِطُ السوابِقَ مُقْرَباتٍ وما يُنجينَ من خبَبِ اللَّيالي

---

(١) أنجز : قضى ووفى . الإقبال : قدوم الدنيا بخيرها . كوكب المجد : استعارة للمولود . الأفق : الناحية من نواحي الفلك ، وإثباته للعلا تخييل ، واسم الخازن عبد الله بن محمد .

(٢) أباد . أهلك ، والجملة دعائية .

(٣) هي : الحال والقصة . تقول بملء فيها : تقول مجاهرة رافعة الصوت ، وطريقه الكناية ، والدنيا لا تقول ، ولكن بما قدمت من دلائل التغيير والتبديل الواضحة كانت كأنها قالت .

(٤) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام . العوالي : الرماح . المنون : الموت . السوابق : الخيل السباقة في العدو ، وارتباطها : إعدادها ، مقربات : مكرمات بتقريب معلفها ومربطها اعتزازاً بها . الخبب : ضرب خاص من السير السريع .

التخلص ٣٠١ ـ الثاني : التخلص ، ونعني به الانتقال مما شبب الكلامُ به . من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ؛ لأن السامع يكون مُترقّباً للانتقال من التشبيب المقصود ! كيف يكون؟ فاذا كان حسناً متلائم الطرفين حرّك من نَشاطِ السامع ، وأعانَ على اصغائه إلى ما بعده ، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس .

مثل للتخلصات المختارة

فمن التخلّصات المختارة قولُ أبي تمام :

٧٠٤ ـ يقول في قُومَسٍ قَومِي ، وقد أَخَذَتْ
مِنّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيّةِ القُودِ :(٢)

أمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغي أن تَؤُمَّ بنا؟
فقلت : كَلاَّ ، ولكنْ مطلَعَ الجُودِ

وقول مُسْلِم بن الوَليد :

٧٠٥ ـ أجِـدَّكِ ما تدرينَ أنْ رُبَّ لَيْلَـةٍ
كأنَّ دُجاها من قُرونِكِ يُنْشَرُ؟(١)

سَهِرْتُ بها حتى تَجَلَّتْ بغُرَّةٍ
كغُرَّةِ يحيى حين يُذْكَرُ جعْفَرُ

---

(١) قومس : موضع جهة خراسان . أخذت منا : نالت منا وأثرت فينا . السرى : السير ليلا . المهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة . القود : جمع قوداء وهي الذلول المنقادة ، أو طويلة الظهر والعنق . تؤم : تقصد . كلا : هي هنا لرد الكلام السابق .

(٢) أجدك : يصح أن يقرأ بفتح الجيم وبكسرها ، وهنا استفهام وقسم ، والأصل « بجدك أما تدرين أن رب ليلة ـ إلخ » فحذف حرف الجر فانتصب المقسم به على نزع الخافض ، والجد بالفتح البخت والحظ ، وبالكسر الاجتهاد في الأمر ، وضد الهزل ، والشيء المحقق . دجاها : ظلمتها . قرونك : ذوائبك . تجلت : انكشفت وانجلت . بغرة : بشمس .

وقول أبي الطيب يمدح المُغيثَ العِجْليّ :

٧٠٦ — مرّتْ بنا بين تِرْبَيْها ، فقلت لها:
مِنْ أينَ جانَسَ هذا الشّادِنُ العرَبا؟!(١)

فاستضحكت ، ثم قالت : كالمُغيثِ يُرى
لَيْثَ الشّرى ، وهْوَ من عِجْلٍ إذا انْتَسَبا

وقوله أيضاً :

٧٠٧ — خليليَّ ، مالي ؟! لا أرَى غير شاعر
فكَمْ مِنْهُمُ الدّعْوَى ومِنّي القصائدُ؟(٢)

فلا تَعجبا ؛ إن السيوفَ كثيرةٌ
ولكنّ سَيْفَ الدّوْلَةِ اليَومَ واحِدُ

* * *

الاقتضاب

٣٠٢ — وقد يُنتقل من الفن الذي شُبّب الكلامُ به إلى ما لا يلائمه ، ويسمّى ذلك الاقتضاب ، وهو مذهب العرب الأوَلِ ، ومن يليهم من المُخَضْرَمين ، كقول أبي تمام :(٣)

٧٠٨ — لو رأى الله أن في الشَّيْبِ خَيْراً
جاوَرَتْهُ الأبرار في الخُلْدِ شِيبَا

كُلَّ يومٍ تُبدي صروفُ الليالي
خُلُقاً من أبي سَعِيدٍ غَرِيبا

---

(١) تربيها : قرينتيها أو لدتيها اللتين ولدتا معها . الشادن : الظبي الصغير . ليث الشرى : أسد من تلك المأسدة المعروفة بجانب الفرات . عجل : قبيلة .

(٢) مالي : استفهام تعجبي . الدعوى : الادعاء .

(٣) هذا مثال للاقتضاب مطلقاً ، وأبو تمام من الشعراء المحدثين .

فصل الخطاب

٣٠٣ – ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلُّص ، كقول القائل بعد حمد الله « أما بعد » قيل : وهو فَصْلُ الخطاب .

وكقوله تعالى : « هذَا ، وإنَّ للطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » (١) أي : الأمر هذا ، أو هذا كما ذكر .

وقوله تعالى : « هذَا ذِكْرٌ وَإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ » (٢) .

ونحوه قول الكاتب : هذا باب ، هذا فصل .

* * *

الانتهاء

٣٠٤ – الثالث : الانتهاء ، لإنه آخر ما يَعِيهِ السمع ، ويَرْتَسِمُ في النفس ، فإن كان مختاراً كما وصفنا جَبَرَ ما عساه وقع فيما قَبله من التقصير ، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك ، وربما أنْسَى محاسن ما قبله .

فمن الانتهاءات المرضية قولُ أبي نُواس :

٧٠٩ – فَبَقِيتَ للعلم الذي تُهْدِي له
وتقاعَسَتْ عن يَوْمِكَ الأيامُ (٣)

وقوله :

٧١٠ – وإني جَدِيرٌ – إذ بَلَغْتُكَ – بالمُنَى
وأنت بما أمَّلْتُ منك جَدِيرُ (٤)

---

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٩ من سورة ص .

(٣) بقيت للعلم : دعاء . تهدى له : أصل معناه تقدم له الهدايا ، والمقصد تكرمه بإكرام أهله . تقاعست : قعدت وتأخرت عن بلوغ يومك .

(٤) جدير : حقيق وأهل لها . إن تولني : إن تمنحني . والبيتان لأبي نواس أيضاً

فإنْ تُولِني منكَ الجميــلَ فأهْلُهُ
وإلاَّ فــإني عــاذرٌ وَشَكُورُ

وقول أبي تمام في خاتمة قصيدة فتح عَمُّورِيَّةَ :

٧١١ – إن كان بين صروف الدهر مِنْ رَحِمٍ
مَوصولة ، أو ذِمــامٍ غيرِ مُقْتَضَبِ(١)

فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بهــا
وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ

أَبْقَتْ بني الأصفرِ المِمْراضِ كاسْمِهِمُ
صُفْرَ الوجوه ، وجلَّتْ أوجُهَ العَرَبِ

أحسن الانتهاءات

٣٠٥ – وأحسن الانتهاءات ما آذن بانتهاء الكلام ، كقول الآخر :

٧١٢ – بَقيتَ بَقاءَ الدهرِ يا كَهْفَ أهْلِه
وهــذا دُعاءٌ لِلبَرِيَّةِ شامِــلُ(٢)

وقوله :

٧١١ – فلا حَطَّتْ لكَ الهَيْجــاء سَرْجاً
ولا ذاقَتْ لك الدنيا فِراقــا(٣)

---

(١) رحم : قرابة وصلة . ذمام : عهد . مقتضب : مقطوع . بنو الأصفر : الروم . الممراض : الشديد المرض والعلة . جلت أوجه العرب : جلتها وأظهرتها . والمراد أن أيام نصره هذه أخزت الروم وأحزنتهم ، وشرفت العرب وسرتهم ، وكان لكل في وجه صاحبه علامة .

(٢) الكهف هنا : الملجأ والملاذ . وينسب هذا البيت للمعري ، وللمتنبي .

(٣) الشطران دعاء للممدوح . حطت : أنزلت . الهيجاء : الحرب ، ومراده لا أعجزتك الحرب ولا خذلتك ، أي لا عجزت فيها ولا نيل منك .

وجميعُ فَواتِحِ السُّوَرِ وخواتِمِها واردةٌ على أحسن وُجوه البلاغةِ وأكملها ، يظهر ذلك بالتأمُّل فيها ، مع التدبُّر لما تَقدَّم من الأصولِ .

والله الموفق للخيرات

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

الفهـرست








دار العلوم العربية
بيروت - لبنان